# سورة الشمس: الآيات ٥ - ٧

قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾[1].

رجح شيخ الإسلام أن (ما) في الآيات الثلاث موصولة بمعنى (الذي).

قال - رحمه الله - عند هذه الآيات: "فقد قيل إن (ما) مصدرية، والتقدير: والسماء وبناء الله إياها، والأرض وطحو الله إياها، ونفس وتسوية الله إياها، لا بد من ذكر الفاعل في الجملة لا يصلح أن يقدر المصدر هنا مضافاً إلى الفعل فقط فيقال: (وبنائها)؛ لأن الفاعل مذكور في الجملة في قوله: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾، ﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾ فإن الفعل لا بد له من فاعل في الجملة ومفعول أيضاً، فلا بد أن يكون في التقدير الفاعل والمفعول، لكن إذا كانت مصدرية كانت (ما) حرفاً ليس فيها ضمير، فيكون ضمير الفاعل في ﴿بَنَىٰهَا﴾ عائداً على غير مذكور بل إلى معلوم، والتقدير: والسماء وما بناها الله، وهذا خلاف الأصل؛ وخلاف الظاهر.

**والقول الثاني**: أنها موصولة والتقدير: الذي بناها والذي طحاها، و(ما) فيها عموم وإجمال يصلح لما لا يعلم ولصفات من يعلم؛ كقوله تعالى: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾[2]، وقوله: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا

(١) سورة الشمس: الآيات ٥ – ٧.

(٢) سورة الكافرون: الآيتان ٢ – ٣.

طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾[١]، وهذا المعنى يجيء في قوله: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾[٢].

وهذا المعنى كما أنه ظاهر الكلام وأصله هو أكمل في المعنى أيضاً؛ فإن القسم بالفاعل يتضمن الإقسام بفعله بخلاف الإقسام بمجرد الفعل، وأيضا فالأقسام التي في القرآن عامتها بالذوات الفاعلة وغير الفاعلة، يقسم بنفس الفعل كقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾[٣]، وكقوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ ﴾[٤]، ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ ﴾[٥]، ونحو ذلك، وهو سبحانه تارة يقسم بنفس المخلوقات؛ وتارة بربها وخالقها كقوله: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٦]، وكقوله: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ وتارة يقسم بها وبربها، وفي هذه السورة أقسم بمخلوق وبفعله؛ وأقسم بمخلوق دون فعله فأقسم بفاعله، فإنه قال: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾[٧]، فأقسم بالشمس والقمر والليل والنهار وآثارها وأفعالها كما فرق

(١) سورة النساء: الآية ٣.
(٢) سورة الليل: الآية ٣.
(٣) سورة الصافات: الآيات ١ – ٣.
(٤) سورة النازعات: الآية ١.
(٥) سورة المرسلات: الآية ١.
(٦) سورة الذاريات: الآية ٢٣.
(٧) سورة الشمس: الآيات ١ – ٤.

بينهما في قوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾[١]، وقال: ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[٢]، فإنه بأفعال هذه الأمور وآثارها تقوم مصالح بني آدم وسائر الحيوان، وقال: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ و لم يقل: (ونهارها) ولا (ضيائها) لأن (الضحى) يدل على النور والحرارة جميعاً وبالأنوار والحرارة تقوم مصالح العباد.

ثم أقسم بالسماء والأرض وبالنفس و لم يذكر معها فعلاً فذكر فاعلها فقال: ﴿ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾، ﴿ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾، فلم يصلح أن يقسم بفعل النفس لأنها تفعل البر والفجور، وهو سبحانه لا يقسم إلا بما هو معظم من مخلوقاته، لكن ذكر في ضمير القسم أنه خالق أفعالها بقوله: ﴿ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[٣]، فإذا كان قد بين أنه خالق فعل العبد الذي هو أظهر الأشياء فعلاً واختياراً وقدرة، فلأن يكون خالق فعل الشمس والقمر والليل والنهار بطريق الأولى والأحرى، وأما السماء والأرض فليس لهما فعل ظاهر يعظم في النفوس حتى يقسم بها إلا ما يظهر من الشمس والقمر والليل والنهار، والسماء والأرض أعظم من الشمس والقمر والليل والنهار، والنفس أشرف الحيوان المخلوق، فكان القسم بصانع هذه الأمور العظيمة مناسباً، وكان إقسامه بصانعها تنبيهاً على أنه صانع ما فيها من الشمس والقمر والليل والنهار،

---

(١) سورة فصلت: الآية ٣٧.

(٢) سورة يس: الآية ٤٠.

(٣) سورة الشمس: الآيتان ٧ – ٨.

فتضمن الكلام الإقسام بصانع هذه المخلوقات وبأعيانها وما فيها من الآثار والمنافع لبني آدم"[١].

وقال - رحمه الله - أيضاً: "ومنه قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ على القول الصحيح إنها اسم موصول والمعنى: وبانيها وطاحيها ومسويها، ولما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[٢]، أخبر بـ﴿مَن﴾ لأن المقصود الإخبار عن فلاح عينه وإن كان فعله للتزكية والتدسية قد ذهب في الدنيا، فالقسم هناك بالموصوف بحيث إنه إنما أقسم بهذا الموصوف والصفة لازمة، فإنه لا توجد مبنية إلا ببانيها ولا مطحية إلا بطاحيها ولا مسواة إلا بمسويها، وأما المرء المزكي نفسه والمدسِّيها فقد انقضى عمله في الدنيا، وفلاحه وخيبته في الآخرة ليسا مستلزمين لذلك العمل"[٣].

## الدراسة:

اختلف المفسرون في (ما) المذكورة في هذه الآيات الثلاث على قولين:

**القول الأول**: أنها موصولة، والتقدير (والذي بناها)، أو (ومن بناها)، ويروى عن مجاهد[٤]، والحسن[٥]، وعطاء والكلبي[٦].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٦/٢٢٧.
(٢) سورة الشمس: الآيتان ٩ – ١٠.
(٣) مجموع الفتاوى ١٦/٥٩٦.
(٤) ذكره عنه ابن عطية ١٦/٣١١، وابن كثير ٨/٤١١.
(٥) ذكره عنه ابن عطية ١٦/٣١١.
(٦) ذكره عنهما الواحدي في الوسيط ٤/٤٩٥، والبغوي ٨/٤٣٧.

وقالوا: إن (ما) تقع عامة لمن يعقل، ولما لا يعقل، كما قال تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾[١].

قال ابن جزي: "وضَعَّف بعضهم كونها موصولة بتقديم ذكر المخلوقات على الخالق"[٢].

واختار هذا القول بعض المفسرين، وممن اختاره أبو عبيدة[٣]، وابن قتيبة[٤]، والثعلبي[٥]، والسمعاني[٦]، وابن القيم[٧]، وأبو السعود[٨]، والألوسي[٩]، والقاسمي[١٠].

وقد نصر هذا القول شيخ الإسلام كما تقدم من جهة اللفظ، ومن جهة المعنى.

وقد ذكر ابن الجوزي قراءةً تؤيد هذا القول، فقال: "وقرأ أبو عمران الجوني

---

(١) سورة البلد: الآية ٣.

(٢) تفسيره ٢/٥٧٧.

(٣) مجاز القرآن ٢/٣٠٠.

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٤٠٦.

(٥) تفسيره ١٠/٢١٣.

(٦) تفسيره ٦/٢٣٢.

(٧) التبيان ص١٤.

(٨) تفسيره ٩/١٦٣.

(٩) روح المعاني ٣٠/١٤٢.

(١٠) تفسيره ١٧/٦١٦٨.

في آخرين (ومن بناها) (ومن طحاها) (ومن سواها) بالنون"[١].

**القول الثاني**: أنها مصدرية، والتقدير: وبنائها، وطحوها، وتسويتها، أو: وبناء الله إياها، أو وبنيانها، ويروى عن قتادة[٢].

قال الزمخشري عن هذا القول: "وليس بالوجه لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾[٣]، وما يؤدي إليه من فساد النظم[٤]، والوجه أن تكون موصولةً، وإنما أوثرت على (مَن) لإرادة معنى الوصفية، كأنه قيل: والسماء والقادر العظيم الذي بناها، ونفسٍ والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها"[٥].

وقد رد أبو حيان اعتراضَه على كونها مصدرية، وتوجيهه الإتيان بها دون (مَن) فقال: وأما قوله: "وليس بالوجه، لقوله ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ يعني من عود الضمير في ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ على الله تعالى، فيكون قد عاد على مذكور، وهو: (ما) المراد به: (الذي) ولا يلزم ذلك، لأنا إذا جعلناها مصدرية عاد الضمير على ما يفهم من سياق الكلام، ففي ﴿بَنَاهَا﴾ ضمير عائد على الله تعالى، أي وبناها هو، أي: الله تعالى كما إذا رأيت زيداً قد ضرب عمراً، فقلت: عجبت مما ضرب عمراً، تقديره: من ضرب عمرو، وهو كان حسناً فصيحاً جائزاً،

---

(١) زاد المسير ٢٥٧/٨.

(٢) ذكره عنه ابن عطية ٣١١/١٦، وابن كثير ٤١١/٨.

(٣) فإن الضمير هنا يعود على الله بالاتفاق، انظر: تفسير ابن جزي ٥٧٦/٢.

(٤) المراد بفساد النظم ما يلزم من عطف الفعل على الاسم، انظر: الألوسي ١٤٣/٣٠.

(٥) تفسيره ٣٨٢/٦، وانظر: تفسير الرازي ١٩١/٣١، وأبي السعود ١٦٣/٩.

وعود الضمير على ما يفهم من سياق الكلام كثير، وقوله: (وما يؤدي إليه من فساد النظم) ليس كذلك، ولا يؤدي جعلها مصدرية إلى ما ذكر، وقوله: (إنما أوثرت إلخ) لا يراد بـ(ما) ولا بـ(من) الموصولتين معنى الوصفية، لأنهما لا يوصف بهما بخلاف الذي فاشتراكهما في أنهما لا يؤديان معنى الوصفية موجود فيهما فلا ينفرد بها ما دون من"[١].

وقال السّمين: "واعترض على هذا القول: بأنه يلزم أن يكون القسم بنفس المصادر: بناء السماء، وطحو الأرض، وتسوية النفس، وليس المقصود إلا القسم بفاعل هذه الأشياء، وهو الرب تبارك وتعالى.

وأجيب عنه بوجهين:

أحدهما: يكون على حذف مضاف، أي: ورب - أو باني - بناء السماء ونحوه.

والثاني: أنه لا غَرْوَ في الإقسام بهذه الأشياء، كما أقسم تعالى بالصبح ونحوه"[٢].

وإليه ذهب من قال: أن (ما) لا تقع على آحاد أولي العلم[٣].

واختار هذا القول بعض المفسرين، وممن اختاره الزجاج[٤]، النحاس[٥]،

---

(١) تفسيره ٤٧٣/٨، وانظر: فتح القدير ٦٤٥/٥.

(٢) الدر المصون ٢٠/١١.

(٣) تفسير أبي حيان ٤٧٣/٨، وانظر: السمين ١٨/١١.

(٤) معاني القرآن ٣٣٢/٥.

(٥) الإعراب ٣٣٢/٥.

والمبرد[١].

ومن المفسرين من أجاز حملها على المعنيين الموصولية والمصدرية، ومنهم الطبري[٢]، وابن عطية[٣]، وابن كثير[٤] وقال: "وكلاهما متلازم"، والشوكاني[٥].

والراجح – والله تعالى أعلم – قول من أجاز حمل الآية على المعنيين، إذْ لا مانع معتبر من ذلك لا من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى.

(١) ذكره عنه ابن عطية ٣١١/٦، وغيره.
(٢) تفسيره ٤٣٨/٢٤ [ ط التركي ].
(٣) تفسيره ٣١١/١٦.
(٤) فتح القدير ٥٥١/٤.
(٥) تفسيره ٦٤٥/٥.

# سورة الشمس: الآية ٨

قال تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن المراد بالإلهام في الآية إلهام الوحي بالتقوى، ووسوسة الشيطان بالفجور.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "فهو سبحانه يلهم الفجور والتقوى للنفس، والفجور يكون بواسطة الشيطان، وهو إلهام وسواس، والتقوى بواسطة ملك، وهو إلهام وحي، هذا أمر بالفجور وهذا أمر بالتقوى والأمر لا بد أن يقترن به خبر، وقد صار في العرف لفظ الإلهام إذا أطلق لا يراد به الوسوسة.

وهذه الآية مما تدل على أنه يفرق بين إلهام الوحي وبين الوسوسة، فالمأمور به إن كان تقوى الله فهو من إلهام الوحي وإن كان من الفجور فهو من وسوسة الشيطان، فيكون الفرق بين الإلهام المحمود وبين الوسوسة المذمومة هو الكتاب والسنة فإن كان مما ألقي في النفس مما دل الكتاب والسنة على أنه تقوى لله فهو من الإلهام المحمود، وإن كان مما دل على أنه فجور فهو من الوسواس المذموم، وهذا الفرق مطرد لا ينتقض.

وقد ذكر أبو حازم في الفرق بين وسوسة النفس والشيطان فقال: ما كرهته نفسك لنفسك فهو من الشيطان فاستعذ بالله منه وما أحبته نفسك

---

(١) سورة الشمس: الآية ٨.

لنفسك فهو من نفسك فافهما عنه"[١].

وقال – رحمه الله – عند هذه الآية: "قيل: هو البيان العام، وقيل: بل ألهم الفاجر الفجور، والتقي التقوى، وهذا في تلك الآية[٢] أظهر؛ لأن الإلهام استعماله مشهور فيإلهام القلوب، لا في التبيين الظاهر الذي تقوم به الحجة.

وقد علم النبي ﷺ حُصيناً الخزاعي لما أسلم أن يقول: "اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي"[٣]، ولو كان الإلهام بمعنى البيان الظاهر لكان حاصلاً للمسلم والكافر"[٤].

وقال – رحمه الله – عند هذه الآية أيضاً: "على قول الأكثرين، وهو أن المراد أنه ألهم الفاجرة فجورها، والتقية تقواها، فالإلهام عنده هو البيان بالأدلة السمعية والعقلية. وأهل السنة يقولون: كلا النوعين من الله هذا الهدى المشترك وذاك الهدى المختص وإن كان قد سماه إلهاماً كما سماه هدىً كما في قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[٥]، وكذلك قد قيل في قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[٦]، أي بينا له طريق الخير والشر وهو هدى البيان العام

---

(١) مجموع الفتاوى ٥٢٩/١٧ – ٥٣٠ وما بعدها.

(٢) يريد هذه الأمة.

(٣) أخرجه الترمذي ٤٨٥/٥ ح٣٤٨٣، كتاب الدعوات، باب ٧٠، وقال: "هذا حديث غريب"، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي ص٤٥٢.

(٤) مجموع الفتاوى ١٤٥/١٦.

(٥) سورة فصلت: الآية ١٧.

(٦) سورة البلد: الآية ١٠.

المشترك، وقيل: هدينا المؤمن لطريق الخير والكافر لطريق الشر؛ فعلى هذا يكون قد جعل الفجور هدى كما جعل أولئك البيان إلهاماً..."[١].

## الدراسة:

تعريف الإلهام: قال الراغب: "الإلهام: إلقاء الشيء في الرُّوع[٢]، ويختص بما كان من جهة الله تعالى، وجهة الملأ الأعلى، قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾"[٣].

وقد اختلف المفسرون في معنى الآية على قولين:

**القول الأول**: أن المعنى: جعل فيها فجورها وتقواها، وبه قال ابن زيد[٤]، وعليه يدل حديث أبي الأسود الدِّيلي[٥]، قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق؟ أو فيما يُستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت عليهم الحجة؟

---

(١) مجموع الفتاوى ٩٨/١٥.

(٢) الرُّوع: القلب، والعقل. انظر: مختار الصحاح ص٢١، مادة (رَوَعَ).

(٣) المفردات ص٧٤٨.

(٤) أخرجه ابن جرير ٤٤٢/٢٦ [ ط التركي ]، زاد الثعلبي ٢١٣/١٠، والواحدي في الوسيط ٤٩٥/٤، والبغوي ٤٣٨/٨ [ ط طيبة ] وغيرهم: "بتوفيقه إياها للتقوى، وخذلانه إياها للفجور".

(٥) هو ظالم بن عمرو، أبو الأسود الديلي، ويقال الدؤلي، العلامة الفاضل، ولد أيام النبوة، كان أول من تكلم بالنحو، مات في طاعون الجارف سنة ٦٩هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ٨١/٤، وتهذيب التهذيب ١٠/١٢.

فقلت: بل شيء قُضي عليهم، ومضى عليهم، قال: أفلا يكون ظُلماً؟ قال: ففزعت من ذلك فزعاً شديداً، وقلت: كلُّ شيء خلقُ الله وملك يده، فلا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، فقال لي: يرحمك الله ! إني لم أُرِد بما سألتك إلا لأَحزرَ عقلك، إنّ رجلين من مُزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله ! أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدرٍ قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: "لا شيء قضي عليهم ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله عزّ وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾"[١].

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: "ألزمها فجورها وتقواها"[٢].

وعن سعيد بن جبير أنه قال: "ألهمها الخير والشر"[٣]، وعنه: "ألزمها فجورها وتقواها"[٤].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٠٤٣/٤ ح٢٦٥٠، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي، وأحمد ٤٣٨/٤، وابن جرير ٤٤٢/٢٤ [ ط التركي ] وغيرهم.

(٢) أخرجه الحاكم ٥٢٤/٢ من طريق سعيد بن جبير، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) ذكره عنه ابن كثير ٤١٢/٨ [ ط طيبة ]، وانظر: الدر ٦٠١/٦.

(٤) ذكره في الدر ٦٠١/٦، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، وذكره الواحدي في الوسيط ٤٩٥/٤، وأخرجه الواحدي في الوسيط ٤٩٥/٤ مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وفيه عمران بن أبي عمران.

قال ابن كثير: "أي: فأرشدها إلى فجورها وتقواها، أي: بيّن لها ذلك، وهداها إلى ما قدر لها"(١).

قال الزجاج: "قيل علّمها طريق الفجور وطريق الهدى، والكلام على أن ألهمها التقوى، وفّقها للتقوى، وألهمها فجورها خذلها"(٢).

وقال السمعاني عن هذا القول: "وهو أولى من القول الأول؛ لأن الإلهام في اللغة فوق التعريف والإعلام"(٣).

وقال الواحدي – بعد أن ذكر هذا القول ومن قال به –: "وهذا هو الوجه لتفسير الإلهام؛ لأن التبيين والتعليم والتعريف دون الإلهام يوقع في قلبه ويجعل فيه، فإذا أوقع الله في قلب عبده شيئاً فقد ألزمه ذلك الشيء، كما ذكره سعيد بن جبير، وهذا صريح في أن الله تعالى خلق في المؤمن تقواه، وفي الكافر فجوره"(٤).

واختاره بعض المفسرين، وممن اختاره الزجاج والواحدي والسمعاني وشيخ الإسلام وابن القيم – كما تقدم –، والرازي(٥)، والقاسمي(٦).

وقد روي عن محمد بن كعب أنه قال: "إذا أراد الله عزّ وجل بعبده خيراً

---

(١) تفسيره ٤١١/٨ [ ط طيبة ].

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٣٣٢/٥، وانظر: الوسيط للواحدي ٤٩٥/٤، وتفسير الرازي ١٩٣/٣١.

(٣) تفسيره ٢٣٣/٦.

(٤) الوسيط ٤٩٥/٤.

(٥) تفسيره ١٩٣/٣١ – ١٩٤.

(٦) تفسيره ٦١٦٩/١٧.

ألهمه الخير فعمل به، وإذا أراد به السوء ألهمه الشر فعمل به"[١].

قال ابن القيم: "ومن ذلك إخباره سبحانه بأنه هو الذي يلهم العبد فجوره وتقواه والإلهام الإلقاء في القلب لا مجرد البيان والتعليم كما قاله طائفة من المفسرين؛ إذ لا يقال لمن بين لغيره شيئاً وعلمه إياه أنه قد ألهمه ذلك، هذا لا يعرف في اللغة ألبتة، بل الصواب ما قاله ابن زيد قال: جعل فيها فجورها وتقواها، وعليه حديث عمران بن حصين أن رجلا من مزينة أو جهينة أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس فيه ويكدحون، أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر سابق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم؟ قال: "بل شيء قضى عليهم ومضى"، قال"ففيم العمل؟ قال: "من خلقه الله لإحدى المنْزلتين استعمله بعمل أهلها، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ فقراءته هذه الآية عقيب إخباره بتقديم القضاء والقدر السابق، يدل على أن المراد بالإلهام استعمالها فيما سبق لها لا مجرد تعريفها؛ فإن التعريف والبيان، لا يستلزم وقوع ما سبق به القضاء والقدر، ومن فسر الآية من السلف بالتعليم والتعريف فمراده تعريف مستلزم لحصول ذلك لا تعريف مجرد عن الحصول فإنه لا يسمى إلهاماً، وبالله التوفيق"[٢].

**القول الثاني**: أن المعنى: بيَّن لها ما ينبغي لها أن تأتي أو تذر من خير أو شر،

---

(١) ذكره القرطبي ٢٠/٥١.

(٢) شفاء العليل ص١٠٠.

وطاعة أو معصيـــة؛ وبه قال ابن عباس[١]، ومجاهد[٢]، والضحاك[٣]، وسعيد بن جبير[٤]، وسفيان[٥]، وقتادة[٦].

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – عند هذه الآية: "بيَّن الخير والشـــر"، وعنه ﷺ: "علمها الطاعة والمعصية"[٧].

وقال الفراء: "عَرّفها سبيل الخـــير وســـبيل الشـــر، وهـــو مثـــل: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[٨]"[٩].

وقال ابن عطية: "أي عرَّفها طُرقَ ذلك، وجعل لها قوة يصح معها اكتسابُ الفجور أو اكتساب التقوى"[١٠].

والراجح – والله تعالى أعلم – القول الأول، لحديث عمران بن حصـــين، ولأنه هو الموافق لمعنى الإلهام في اللغة، وتقدم تقرير ذلك.

---

(١) أخرجه ابن جرير من طريق علي بن طلحة، وطريق عطية العوفي ٢٤/٤٤٠ – ٤٤١.

(٢) أخرجه ابن جرير ٢٤/٤٤١ [ ط التركي ]، وعزاه في الدر ٦/٦٠٠ لعبد بن حميد.

(٣) أخرجه ابن جرير ٢٤/٤٤١ [ ط التركي ] وعزاه في الدر ٦/٦٠١.

(٤) ذكره في الدر ٦/٦٠١، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه ابن جرير ٢٤/٤٤١ [ ط التركي ] وهو الثوري كما ذكر ابن كثير.

(٦) أخرجه ابن جرير ٢٤/٤٤١، وذكره السيوطي في الدر ٦/٦٠١، وعزاه أيضاً لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٧) أخرجه ابن جرير ٢٤/٤٤٠ – ٤٤١[ ط التركي ]، وأخرجه الحاكم ٢/٥٢٤ من طريق مجاهد عنه، وصححه بلفظ: "عرف شقاءها وسعادتها"٢/٥٢٤.

(٨) سورة البلد: الآية ١٠.

(٩) معاني القرآن ٣/٢٦٦.

(١٠) تفسيره ١٥/٣١١، وانظر: تفسير السهيلي ٢/٥٧٧، والتعبير بالاكتساب مبني علـــى نظريـــة الكسب عند الأشاعرة، فيما يظهر.

# سورة الشمس: الآيتان ٩ - ١٠

قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[١].

رجح شيخ الإسلام أن الضمير المستتر في قوله تعالى: ﴿ زَكَّىٰهَا ﴾ و﴿ دَسَّىٰهَا ﴾ يعود إلى العبد، والمعنى: قد أفلح من زكى نفسه، وقد خاب من دسى نفسه.

قال - رحمه الله -: "قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ و﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾[٢]، قال قتادة وابن عيينة وغيرهما: قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال، وقال الفراء والزجاج: قد أفلحت نفس زكاها الله، وقد خابت نفس دساها الله، وكذلك ذكره الوالبي عن ابن عباس وهو منقطع، و[ليس] هو مراد الآية؛ بل المراد بها الأول قطعاً لفظاً ومعنى.

أما (اللفظ) فقوله: ﴿ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ اسم موصول ولا بد فيه من عائد على ﴿ مَن ﴾ فإذا قيل: قد أفلح الشخص الذي زكاها كان ضمير الشخص في ﴿ زَكَّىٰهَا ﴾ يعود على ﴿ مَن ﴾ هذا وجه الكلام الذي لا ريب في صحته كما يقال: قد أفلح من اتقى الله وقد أفلح من أطاع ربه، وأما إذا كان المعنى: قد أفلح من زكاه الله لم يبق في الجملة ضمير يعود على ﴿ مَن ﴾ فإن الضمير على هذا يعود على الله وليس هو ﴿ مَن ﴾ وضمير المفعول يعود على النفس

---

(١) سورة الشمس: الآيتان ٩ – ١٠.

(٢) سورة الأعلى: الآية ١٤.

المتقدمة فلا يعود على ﴿ مَن ﴾ لا ضمير الفاعل ولا المفعول، فتخلو الصلة من عائد وهذا لا يجوز، نعم لو قيل: قد أفلح من زكى الله نفسه أو من زكاها الله له ونحو ذلك صح الكلام، وخفاء هذا على من قال به من النحاة عجب، وهو لم يقل: قد أفلحت نفس زكاها، فإنه هنا كانت تكون ﴿زَكَّىٰهَا﴾ صفة لنفس لا صلة؛ بل قال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ فالجملة صلة لـ﴿ مَن ﴾ لا صفة لها، ولا قال أيضاً: قد أفلحت النفس التي زكاها؛ فإنه لو قيل ذلك وجعل في ﴿ زَكَّىٰهَا ﴾ ضمير يعود على اسم الله صح، فإذا تكلفوا وقالوا: التقدير ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ هي النفس التي زكاها، وقالوا: في زكى ضمير المفعول يعود على ﴿ مَن ﴾ وهي تصلح للمذكر والمؤنث والواحد والعدد، فالضمير عائد على معناها المؤنث وتأنيثها غير حقيقي ولهذا قيل: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ ولم يقل قد أفلحت قيل لهم: هذا مع أنه خروج من اللغة الفصيحة؛ فإنما يصح إذا دل الكلام على ذلك في مثل ومن[1] على أن المراد لنا، وكذا قوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾[2]، ونحو ذلك، وأما هنا فليس في لفظ ﴿ مَّن ﴾ وما بعدها ما يدل على أن المراد به النفس المؤنثة، فلا يجوز أن يراد بالكلام ما ليس فيه دليل على إرادته؛ فإن مثل هذا مما يصان كلام الله عز وجل عنه فلو قدر احتمال عود ضمير ﴿ زَكَّىٰهَا ﴾ إلى نفس وإلى ﴿ مَّن ﴾ مع أن لفظ ﴿ مَّن ﴾ لا دليل يوجب عوده عليه لكان إعادته إلى المؤنث أولى من إعادته إلى ما يحتمل

(١) قال ابن قاسم: "بياض في الأصل".

(٢) سورة يونس: الآية ٤٢.

التذكير والتأنيث، وهو في التذكير أظهر لعدم دلالته على التأنيث؛ فإن الكلام إذا احتمل معنيين وجب حمله على أظهرهما، ومن تكلف غير ذلك فقد خرج عن كلام العرب المعروف، والقرآن منَزه عن ذلك، والعدول عما يدل عليه ظاهر الكلام إلى ما لا يدل عليه بلا دليل لا يجوز ألبتة؛ فكيف إذا كان نصاً من جهة المعنى فقد أخبر الله أنه يلهم التقوى والفجور، ولبسط هذا موضع آخر"[(١)].

وقال – رحمه الله –: "وقد قيل في قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ أن الضمير عائد إلى الله، وهذا مخالف للظاهر بعيد عن نهج البيان الذي أُلف عليه القرآن؛ إذْ كان الأحسن: (أفلحت نفس زكاها الله، وقد خابت من دساها) وهذا ضعيف"[(٢)].

## الدراسة:

اختلف المفسرون في معنى هاتين الآيتين على قولين:

**القول الأول**: أن المعنى: قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال؛ وبه قال قتادة[(٣)]، وابن عيينة[(٤)]، والحسن[(٥)] حيث قال: "قد أفلح من

---

(١) مجموع الفتاوى ٦٢٥/١٠.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٣١/١٦.

(٣) أخرجه ابن جرير ٤٤٤/٢٤ [ ط التركي ].

(٤) ذكره عنه ابن تيمية كما تقدم.

(٥) ذكره في الدر ٦٠١/٦ وعزاه لعبد بن حميد.

زكى نفسه وأصلحها، وخاب من أهلكها وأضلها".

وعن الربيع أنه قال عند هذه الآية: "أفلح من زكى نفسه بالعمل الصالح، وخاب من دسى نفسه بالعمل السيء"[١].

ورُوي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير[٢] أنهم قالوا: من أصلحها.

وبهذا القول قال بعض المفسرين، وممن اختاره ابن قتيبة[٣]، والزمخشري[٤]، وشيخ الإسلام كما تقدم، وأبو حيان[٥]، وابن القيم كما تقدم ونسبه للجمهور، والسمين[٦]، والسهيلي[٧]، والشوكاني[٨]، والسعدي[٩]، وابن عاشور[١٠].

ومعنى زكاها: "أصلحها وطهرها من الذنوب"[١١].

قال ابن قتيبة: "﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ يريد أفلح من زكى نفسه، أي:

---

(١) ذكره في الدر ٦٠٢/٦، وعزاه لعبد بن حميد.

(٢) وقد أخرجه عنهم ابن جرير ٤٤٣/٢٤.

(٣) التأويل ص٣٤٤.

(٤) تفسيره ٢١٥/٤.

(٥) البحر المحيط ٤٧٥/٨.

(٦) الدر المصون ٢١/١١.

(٧) التسهيل ٥٧٧/٢.

(٨) تفسيره ٦٤٥/٥.

(٩) تفسيره ص٨٥٦.

(١٠) تفسيره ٣٧١/٣٠.

(١١) زاد المسير ٢٥٨/٨.

أنماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ أي: نقصها وأخفاها بترك عمل البر، وبركوب المعاصي، والفاجر أبداً خَفيَ المكان زَمرَ المروءة[١]، غامض الشخص ناكس الرأس، ودَسَّاها: من دَسَسْت فقلبت إحدى السينات ياءً، كما يقال لبَّيْت، والأصل: لببت"[٢].

وقال النحاس: "ومعنى زكاها الله، طهَّرها بالتوفيق لطاعته... ﴿ وَقَدْ خَابَ ﴾ أي لم يظفر بما يريد من دسَّى نفسه الله، أي خذلها فارتكبت المعاصي، وعلى القول الآخر: من دسّى نفسه أي سترها لركوب المعصية، فاشتقاقه من دسَّى ودسَسَ، فأبدل من أحد السينين ياءً"[٣].

واختاره القاضي، وقال: "لأن ذكر النفس قد تقدم ظاهراً، فرد الضمير عليه أولى من رده على ما هو في حكم المذكور، لا أنه مذكور"[٤].

وقد رجح ابن القيم هذا القول لوجوه ثلاثة:

"أحدها: أن فيه إشارة إلى ما تقدم من تعليق الفلاح على فعل العبد واختياره، كما هي طريقة القرآن.

الثاني: أن فيه زيادة فائدة وهي إثبات فعل العبد وكسبه وما يثاب وما يعاقب عليه وفي قوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ إثبات القضاء والقدر

---

(١) زَمِرَ المرؤة: قليلها. انظر: المعجم الوسيط ٣٩٩/١، مادة (زمر).

(٢) تأويل مشكل القرآن ص٣٤٤، وانظر: معاني القرآن للفراء ٢٦٧/٣، وتفسير ابن جرير ٤٤٤/٢٤ [ ط التركي ]، ومعاني القرآن للزجاج ٣٣٢/٥.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢٣٧/٥.

(٤) ذكره عنه الرازي ١٩٤/٣٢، ورده، والمراد القاضي عبد الجبار.

السابق، فتضمنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين، وهما كثيراً ما يقترنان في القرآن؛ كقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ٥٥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[١]، وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٢].

الثالث: أن قولنا يستلزم قولكم - يعني أصحابَ القول الثاني - دون العكس فان العبد إذا زكى نفسه ودساها فإنما يزكيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه وإعانته، وإنما يدسيها بعد تدسية الله لها بخذلانه والتخلية بينه وبين نفسه، بخلاف ما إذا كان المعنى على القدر السابق المحض لم يبق للكسب وفعل العبد ههنا ذكر البتة"[٣].

**القول الثاني**: أن المعنى: قد أفلحت نفس زكاها الله، وقد خابت نفسٌ دساها الله، وروي عن ابن عباس مرفوعاً[٤]، وموقوفاً[٥]، وكلاهما ضعيف،

---

(١) سورة المدثر: الآيات ٥٤ – ٥٦.

(٢) سورة التكوير: الآيتان ٢٨ – ٢٩.

(٣) التبيان ص١٧ – ١٩ باختصار.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٣٤٣٧/١٠، والديلمي في مسند الفردوس ٢٦١/٣ (٤٦٠٠)، وضعفه ابن كثير ٤١٢/٨ [ ط طيبة ]، وأخرجه الواحدي في الوسيط ٤٩٨/٤، وذكره في الدر ٦٠٢/٦ وعزاه أيضاً لأبي الشيخ وابن مردويه، وضعفه شيخ الإسلام كما تقدم، وضعفه الشوكاني في تفسيره ٦٤٨/٥.

(٥) أخرجه ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة ٤٤٣/٢٤، ٤٤٥ [ ط التركي ]، وابن أبي حاتم ٣٤٣٨/١٠، وانظر: الدر ٦٠٢/٦.

وروي عن ابن زيد[١]، والكلبي[٢]، ومقاتل[٣]، واختاره بعض المفسرين، وممن اختاره الفراء[٤]، وابن جرير[٥]، والزجاج[٦]، والنحاس[٧]، والثعلبي[٨]، والواحدي[٩]، والبغوي[١٠]، والرازي[١١]، والألوسي[١٢]، وابن المنير[١٣].

واستُدل له بما رُوي أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: "اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها"[١٤] [١٥].

---

(١) أخرجه ابن جرير ٢٤/٤٤٤، ٤٤٦ [ ط التركي ].

(٢) ذكره في الدر ٦/٦٠١، وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) ذكره الرازي ٣١/١٩٣.

(٤) المعاني ٣/٢٦٧.

(٥) تفسيره ٢٤/٤٤٣ - ٤٤٤ [ ط التركي ].

(٦) معاني القرآن ٥/٣٣٢.

(٧) تفسيره ٥/٢٣٦.

(٨) تفسيره ١٠/٢١٣.

(٩) الوسيط ٤/٤٩٧.

(١٠) تفسيره ٨/٤٣٩ [ ط طيبة ].

(١١) تفسيره ٣١/١٩٤.

(١٢) تفسيره ٣٠/٤٣.

(١٣) انظر: الانتصاف بهامش الكشاف ٤/٢١٥.

(١٤) أخرجه الطبراني في الكبير ١١/١٠٦، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وحسن إسناده الهيثمي في المجمع ٧/١٣٨، وذكره في الدر ٦/٦٠٠،وعزاه أيضاً لابن المنذر وابن مردويه،وأصله في الصحيحين دون ذكر الآية.

(١٥) وقد استدل به ابن عطية ١٦/٣١٢ وغيره.

واستدل له الرازي بقوله: "إن أهل اللغة اتفقوا على أن عود الضمير إلى الأقرب أولى من عوده إلى الأبعد،وقوله (فَأَلْهَمَهَا) أقرب إلى قوله: (ما) منه إلى قوله: (وَنَفْسٍ)"[١].

وقد رد شيخ الإسلام هذا القول من جهة اللفظ والمعنى كما تقدم، وكذا ابن القيم بنحو ما قاله شيخه وقال: "سياق الكلام ونظمه يقتضي خلافه، ولم تدع الضرورة إليه فالحمل عليه ممتنع"[٢]، كما رده الزمخشري بناء على مذهبه القدري: أن الإنسان يخلق فعل نفسه[٣].

وقال السمين عن هذا القول: "والحق أنه خلاف الظاهر،لا لما قاله الزمخشري، بل لمنافرته نظمه،للاحتياج إلى عود الضمير على النفس مقيدة بإضافتها إلى ضمير (من)"[٤]. والراجح القول الأول؛ لأنه الظاهر المتبادر من سياق الآيات، وأما القول الثاني ففيه تكلف، وتقدم تقرير ذلك.

---

(١) تفسيره ٣٢/١٩٤.

(٢) التبيان ص١٨.

(٣) الكشاف ٤/٢١٦.

(٤) الدر المصون ١١/٢١.

# سورة الليل: الآية ١٢

قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن معنى الآية أن الطريق المستقيم لا يدل إلا على الله تعالى.

قال - رحمه الله -: "فصل في آيات ثلاث متشابهات اللفظ والمعنى يخفى معناها على أكثر الناس، قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾[٤]، فلفظ هذه الآيات فيه أن السبيل الهادي هو على الله".

ثم تكلم على الآيتين الأُوليَين - آية الحجر وآية النحل - ثم قال: "وأما آية الليل فابن عطية مَثَّلها بهذه الآية[٥]، لكنه فسرها بالوجه الأول فقال: "ثم أخبر تعالى أن عليه هدى الناس جميعا، أي: تعريفهم بالسبل كلها ومنحهم الإدراك؛ كما قال: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ثم كل أحد يتكسب ما قدر له،

---

(١) سورة الليل: الآية ١٢.

(٢) سورة الحجر: الآيتان ٤١ – ٤٢.

(٣) سورة النحل: الآية ١٦.

(٤) سورة الليل: الآيتان ١٢ – ١٣.

(٥) يعني آية النحل.

وليست هذه الهداية بالإرشاد إلى الإيمان ولو كان كذلك لم يوجد كافر، قلت: وهذا هو الذي ذكره ابن الجوزي، وذكره عن الزجاج، قال الزجاج: إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال، وهذا التفسير ثابت عن قتادة فقد رُوي عنه أنه قال: علينا بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته.

لكن قتادة ذكر أنه البيان الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه، فتبيَّن به حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته.

ثم قال: "وقال الفراء: يعني من سلك الهدى فعلى الله سبيله كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ يقول: من أراد الله فهو على السبيل القاصد، قال: وقيل معناه: إن علينا للهدى والإضلال كقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾[1].

قلت: هذا القول هو من الأقوال المحدثة التي لم تعرف عن السلف، وكذلك ما أشبهه. فإنهم قالوا: معناه بيدك الخير والشر والنبي ﷺ في الحديث الصحيح يقول: "والخير بيديك والشر ليس إليك"[2]، والله تعالى خالق كل شيء - لا يكون في ملكه إلا ما يشاء - والقدر حق، لكن فهم القرآن ووضع كل شيء موضعه وبيان حكمة الرب وعدله مع الإيمان بالقدر هو طريق الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

ثم قال: "فقد تبين أن جمهور المتقدمين فسروا الآيات الثلاث بأن الطريق

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٦.

(٢) أخرجه مسلم ١/٥٣٤ ح٧٧١، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل، عن علي رضي الله عنه.

المستقيم لا يدل إلا على الله، ومنهم من فسرها بأن عليه بيان الطريق المستقيم، والمعنى الأول متفق عليه بين المسلمين، وأما الثاني فقد يقول طائفة: ليس على الله شيء، لا بيان هذا ولا هذا؛ فإنهم متنازعون هل أوجب على نفسه كما قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[١]، وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[٣]، إذا كان عليه بيان الهدى من الضلال، وبيان حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته، فهذا يوافق قول من يقول: إن عليه إرسال الرسل، وإن ذلك واجب عليه، فإن البيان لا يحصل إلا بهذا، وهذا يتعلق بأصل آخر وهو أن كل ما فعله فهو واجب منه أوجبته مشيئته وحكمته وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فما شاءه وجب وجوده، وما لم يشأه امتنع وجوده، وبسط هذا له موضع آخر، ودلالة الآيات على هذا فيها نظر.

وأما المعنى المتفق عليه فهو مراد من الآيات الثلاث قطعاً، وأنه أرشد بها إلى [ الطريق ] المستقيم، وهي الطريق القصد، وهي الهدى إنما تدل عليه - وهو الحق - طريقه على الله لا يعرج عنه، لكن نشأت الشبهة من كونه قال: ﴿عَلَيْنَا﴾ بحرف الاستعلاء[٤] ولم يقل (إلينا)، والمعروف أن يقال لمن يشار إليه

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٤.

(٢) سورة الروم: الآية ٤٧.

(٣) سورة هود: الآية ٦.

(٤) ولابن عاشور كلام في نكتة التعبير بـ(على) في هذا الموضع، انظر: تفسيره ٣٠/٣٨٨.

أن يقال: (هذه الطريق إلى فلان)، ولمن يمر به ويجتاز عليه أن يقول: (طريقنا على فلان)، وذكر هذا المعنى بحرف الاستعلاء، وهو من محاسن القرآن الذي لا تنقضي عجائبه ولا يشبع منه العلماء؛ فإن الخلق كلهم مصيرهم ومرجعهم إلى الله على أي طريق سلكوا، كما قال تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1]، ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾[2]، أي: إلينا مرجعهم... فأي سبيل سلكها العبد فإلى الله مرجعه ومنتهاه، لا بد له من لقاء الله ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾[3]، وتلك الآيات قصد بها أن سبيل الحق والهدى وهو الصراط المستقيم هو الذي يسعد أصحابه وينالون به ولاية الله ورحمته وكرامته، فيكون الله وليهم دون الشيطان، وهذه سبيل من عبد الله وحده وأطاع رسله، فلهذا قال: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾، ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾[4]، فالهدى وقصد السبيل والصراط المستقيم إنما يدل على عبادته وطاعته، لا يدل على معصيته وطاعة الشيطان، فالكلام تضمن معنى (الدلالة)؛ إذ ليس المراد ذكر الجزاء في الآخرة، فإن الجزاء يعم الخلق كلهم، بل المقصود بيان ما أمر الله به من عبادته وطاعته وطاعة رسله فكأنه قيل: الصراط المستقيم يدل على الله على عبادته وطاعته، وذلك يبين أن من لغة العرب أنهم

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٨.

(٢) سورة الغاشية: الآية ٢٥.

(٣) سورة النجم: الآية ٣١.

(٤) سورة الحجر: الآية ٤١.

يقولون: (هذه الطريق على فلان) إذا كانت تدل عليه، وكان هو الغاية المقصود بها؛ وهذا غير كونها (عليه)، بمعنى أن صاحبها يمر عليه..."[١].

## الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بهذه الآية على ثلاثة أقوال:

**القول الأول**: أن من سلك الهدى فعلى الله سبيله، وهذا ما قرره شيخ الإسلام – كما تقدم –.

قال الفراء عند هذه الآية: "من سلك الهدى فعلى الله سبيله، ومثله قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾، يقول من أراد اللهَ فهو على السبيل القاصد، ويقال: إن علينا للهدى والإضلال، فترك الإضلال كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾[٢] وهي تقي الحر والبرد"[٣].

قال ابن القيم عن هذا القول: "وهذا قول مجاهد[٤]، وهو أصح الأقوال في الآية، قال الواحدي[٥]: علينا للهدى، أي إن الهدى يوصل صاحبه إلى الله، وإلى ثوابه وجنته، وهذا المعنى في القرآن في ثلاث مواضع: ههنا، وفي النحل في قوله:

---

(١) مجموع الفتاوى ١٥/١٩٨ – ٢١٦ بتصرف واختصار، وانظر: المدارج ١/٢٥.

(٢) سورة النحل: الآية ٨١.

(٣) معاني القرآن ٣/٢٧١.

(٤) لم أر من ذكره عن مجاهد في هذه الآية، وإنما ورد عنه نحوه في آية الحجر، وآية النحل، انظر: الدر المنثور ٤/١٨٤، ٢٠٩، قال شيخ الإسلام: "ثابت عنه".

(٥) لم أجده في الوسيط والوجيز له عند هذه الآية، وإنما ذكر نحوه في آية الحجر، انظر: الوسيط ٣/٤٥.

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾، وفي الحجر في قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ وهو معنى شريف جليل يدل على أن سالك طريق الهدى يوصله طريقه إلى الله ولا بد، والهدى هو الصراط المستقيم، فمن سلكه أوصله إلى الله، فذكر الطريق والغاية، فالطريق الهدى، والغاية الوصول إلى الله سبحانه"(١).

وقال السعدي: "أي: إن الهدى المستقيم طريق يوصل إلى الله، ويدني من رضاه وأما الضلال، فطرقه مسدودة عن الله، لا توصل صاحبها إلا للعذاب الشديد"(٢).

**القول الثاني**: أن المعنى: إن علينا لبيانَ الحق من الباطل، والطاعة من المعصية.

قال قتادة عند هذه الآية: "على الله البيان؛ بيانُ حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته"(٣).

وقال الزجاج: "علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال"(٤).

واختار هذا القول جمهور المفسرين، وممن اختاره ابن جرير(٥)، والثعلبي(٦)،

---

(١) التبيان ص٤٥.

(٢) تفسيره ص٨٥٧.

(٣) أخرجه ابن جرير ٤٧٥/٢٤ [ ط التركي ]، وابن أبي حاتم ٣٤٤١/١٠، وعزاه في الدر ٦٠٦/٦ أيضاً لابن حميد وابن المنذر، وقال عنه شيخ الإسلام كما سبق: "ثابت عن قتادة".

(٤) معاني القرآن ٣٣٦/٥.

(٥) تفسيره ٤٧٥/٢٤ [ ط التركي ].

(٦) تفسيره ٢١٨/١٠.

والسهيلي[١]، والواحدي[٢]، وابن عطية[٣]، والرازي[٤]، وأبو حيان[٥]، وأبو السعود[٦]، والشوكاني[٧]، والألوسي[٨].

قال أبو السعود: "استئناف مقرر لما قبله أي: إن علينا بموجب قضائنا المبني على الحكم البالغة، حيث خلقنا الخلق للعبادة، أن نبين لهم طريق الهدى وما يؤدي إليه، وطريق الضلال وما يؤدي إليه، وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه، حيث بينا حال من سلك كلا الطريقين ترغيباً وترهيباً"[٩].

وقد جعل ابن القيم قول الفراء: ويقال: إن علينا للهدى والإضلال قولاً آخر في المسألة، وقال: "وهذا أضعفُ من القول الأول - إن علينا لبيان الحق من الباطل - وإن كان معناه صحيحاً، فليس هو معنى الآية"[١٠] كما تعقبه شيخ الإسلام كما سبق.

---

(١) تفسيره ٢/٥٨٠.

(٢) الوسيط ٤/٥٠٥.

(٣) المحرر الوجيز ١٥/٣١٨.

(٤) تفسيره ٣١/٢٠٢.

(٥) البحر المحيط ٨/٤٧٨.

(٦) تفسيره ٦/١٦٧.

(٧) فتح القدير ٥/٦٥١.

(٨) تفسيره ٣٠/١٥٠.

(٩) تفسيره ٩/١٦٧، وانظر: تفسير الألوسي ٣٠/١٥٠، والقاسمي ١٧/٦١٧٨، وابن عاشور ٣٠/٣٨٨.

(١٠) التبيان ص٤٥، وانظر: مدارج السالكين ١/٢٤ – ٢٥.

وظاهر كلام أكثر المفسرين أنهما بمعنى واحد.

وقال الشيخ محمد العثيمين عند هذه الآية: "فيه التزام من الله – عز وجل– أن يبين للخلق ما يهتدون به إليه، والمراد بالهدى هنا: هدى البيان والإرشاد؛ فإن الله تعالى التزم على نفسه بيان ذلك حتى لا يكون للناس على الله حجة، وهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ إلى أن قال: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾[1] فلا يمكن للعقل البشري أن يستقل بمعرفة الهدى، ولذلك التزم الله عزّ وجل بأن يبين الهدى للإنسان ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰٓ﴾ وليُعلم أن الهدى نوعان:

١ – هدى التوفيق، فهذا لا يقدر عليه إلا الله.

٢ – هدى إرشاد ودلالة، فهذا يكون من الله، ويكون من الخلق: من الرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن العلماء.

كما قال الله لنبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[2]، أما هداية التوفيق فهي إلى الله لا أحد يستطيع أن يوفق شخصاً إلى الخير كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾[3]، وإذا نظرنا إلى هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا

(١) سورة النساء: الآيات ١٦٣ – ١٦٥.

(٢) سورة الشورى: الآية ٥٢.

(٣) سورة القصص: الآية ٥٦.

﴿لَلْهُدَىٰ﴾ وجدنا أن الله تعالى بين كل شيء، بين ما يلزم الناس في العقيدة، وما يلزمهم في العبادة، وما يلزمهم في الأخلاق، وما يلزمهم في المعاملات، وما يجب عليهم اجتنابه في هذا كله"[1].

والراجح – والله أعلم – القول الأول؛ لأنه بمعنى آيتي الحجر والنحل، والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

(١) تفسير جزء عمَّ ص٢٢٩.

# سورة الشرح: الآيتان ٧ - ٨

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن معنى الآيتين: فإذا فرغت من أشغال الدنيا فانصب في العبادة، وإلى ربك فارغب.

قال - رحمه الله - عند هاتين الآيتين: "قيل: إذا فرغت من أشغال الدنيا فانصب في العبادة وإلى ربك فارغب، وهذا أشهر القولين، وخرج شريح القاضي[٢] على قوم من الحاكة يوم عيد وهم يلعبون فقال: ما لكم تلعبون؟ قالوا: إنا تفرغنا، قال: أوبهذا أُمِر الفارغ؟ وتلا قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾، ويناسب هذا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾[٣]، أي: ذهاباً ومجيئاً وبالليل تكون فارغا.

و﴿ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ ﴾ في أصح القولين: إنما تكون بعد النوم، يقال: نشأ إذا قام بعد النوم؛ فإذا قام بعد النوم كانت مواطأة قلبه للسانه أشد، لعدم ما يشغل القلب وزوال أثر حركة النهار بالنوم، وكان قوله أقوم، وقد قيل: ﴿فَإِذَا

---

(١) سورة الشرح: الآيتان ٧ – ٨.

(٢) هو شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي، أبو أمية، من أشهر القضاة الفقهاء في صدر الإسلام، كان ثقة في الحديث مأموناً في القضاء، له باع في الأدب والشعر، توفي بالكوفة سنة ٧٨هـ. انظر: حلية الأولياء ١٣٢/٤، وشذرات الذهب ٨٥/١.

(٣) سورة المزمل: الآيات ١ – ٧.

﴿فَرَغْتَ﴾ من الصلاة ﴿فَٱنصَبْ﴾ في الدعاء ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾.

وهذا القول سواء كان صحيحاً أو لم يكن؛ فإنه يمنع الدعاء في آخر الصلاة، لا سيما والنبي ﷺ هو المأمور بهذا فلا بد أن يمتثل ما أمره الله به، ودعاؤه في الصلاة المنقول عنه في الصحاح وغيرها إنما كان قبل الخروج من الصلاة".

ثم ذكر بعض الأحاديث الواردة في ذلك، ثم قال: "مع أن تفسير قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ أي: فرغت من الصلاة قول ضعيف؛ فإن قوله: (إذا فرغت) مطلق، ولأن الفارغ إن أريد به الفارغ من العبادة فالدعاء أيضا عبادة، وإن أريد به الفراغ من أشغال الدنيا بالصلاة فليس كذلك، يوضح ذلك أنه لا نزاع بين المسلمين أن الصلاة يدعى فيها كما كان النبي ﷺ يدعو فيها... فإذا كان الدعاء مشروعاً في الصلاة لا سيما في آخرها فكيف يقول: إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء، والذي فرغ منه هو نظير الذي أمر به، فهو في الصلاة كان ناصباً في الدعاء، لا فارغاً.

ثم إنه لم يقل مسلم إن الدعاء بعد الخروج من الصلاة يكون أوكد وأقوى منه في الصلاة ثم لو كان قوله: ﴿فَٱنصَبْ﴾ في الدعاء لم يحتج إلى قوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ فإنه قد علم أن الدعاء إنما يكون لله، فعلم أنه أمره بشيئين: أن يجتهد في العبادة عند فراغه من أشغاله، وأن تكون رغبته إلى ربه لا

إلى غيره؛ كما في قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[١]، فقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ موافق لقوله: ﴿ فَانصَبْ ﴾، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ موافق لقوله: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ ومثله قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[٢]، وذلك أن دعاء الله المذكور في القرآن نوعان: دعاء عبادة ودعاء مسألة ورغبة فقوله: ﴿ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ يجمع نوعي دعاء الله قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ الآية[٤]، ونظائره كثيرة"[٥].

## الدراسة:

معنى (انْصَبْ) اِدْأَب في العمل، من النَّصب، والنَّصب: التعب، والدؤوب في العمل[٦].

---

(١) سورة الفاتحة: الآية ٥.

(٢) سورة هود: الآية ١٢٣.

(٣) سورة الجن: الآية ١٩.

(٤) سورة المؤمنون: الآية ١١٧.

(٥) مجموع الفتاوى ٤٩٥/٢٢ – ٤٩٨، وانظر: الفتاوى الكبرى ١٦٣/١ – ١٦٥.

(٦) زاد المسير ٢٧٣/٨، وانظر: تفسير ابن عطية ٣٢٧/١٦، ومختار الصحاح ص٢٨٨، مادة (نصب).

واختلف المفسرون في معنى الآية على ستة أقوال:

**القول الأول**: فإذا فرغت من أمر دنياك فانصب في عمل آخرتك.

قال مجاهد: "إذا فرغت من أمر دنياك فانصب، فصلِّ"(١)، وعنه: "إذا فرغت من أمر دنياك وقمت إلى الصلاة فاجعل رغبتك ونيتك له"(٢).

وهذا الذي اختاره شيخ الإسلام – كما تقدم –، كما اختاره النحاس حيث قال: "ومن أحسن ما قيل فيه، وهو جامع لجميع الأقوال أنه ينبغي إذا فرغ الإنسان من شغله أن ينتصب لله – جل وعز – وأن يرغب إليه وأن لا يشتغل بما يلهيه عن ذكر الله – سبحانه – فهذا أدب الله – عز وجل – وقد قال عبد الله بن مسعود: ما يعجبني الإنسان أراه فارغاً لا يشتغل بأمر الدنيا ولا بأمر الآخرة"(٣).

ورجح هذا القول ابن جرير في تفسيره، وقال: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: إن الله – تعالى ذكره – أمر نبيه أن يجعل فراغه من كل ما كان به مشتغلاً من أمر دنياه وآخرته إلى النصب في عبادته، والاشتغال فيما قربه إليه، ومسألته حاجاته، ولم يخصص بذلك حالاً من أحوال فراغه دون حال، فسواء كل أحوال فراغه من صلاة، أو جهاد، أو أمر دنيا، لعموم الشرط في ذلك..."(٤).

---

(١) أخرجه ابن جرير ٦٢٩/١٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) إعراب القرآن ٢٥٣/٥.

(٤) تفسير ابن جرير ٦٢٩/١٢ باختصار وتصرف.

وممن اختاره ابن كثير، وقال: "أي: إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها، وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة، وقم إليها نشيطاً فارغ البال، وأخلص لربك النية والرغبة، ومن هذا القبيل قوله ﷺ في الحديث المتفق على صحته: "لا صلاة بحضرة طعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان"(١)، وقوله ﷺ: "إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء فابدأوا بالعشاء"(٢)"(٣).

والسعدي، حيث قال: "أي: إذا تفرغت من أشغالك، ولم يبق في قلبك ما يعوقه، فاجتهد في العبادة والدعاء ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وحده ﴿فَٱرۡغَب﴾ أي أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول عبادتك، ولا تكن ممن إذا فرغوا وتفرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره فتكون من الخاسرين"(٤).

واختاره الألوسي أيضاً، قال: "وأشعرت الآية بأن اللائق بحال العبد أن يستغرق أوقاته بالعبادة، أو بأن يفرغ إلى العبادة بعد أن يفرغ من أمور دنياه"(٥).

وممن اختار العموم ابن عاشور، وقال - بعد أن ذكر أقوال المفسرين من

---

(١) الحديث انفرد به مسلم ١/ ٣٩٣ ح٥٦٠، كتاب المساجد، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري ٩/٧٢٣ ح٥٤٦٥، كتاب الأطعمة، باب إذا حضر العشاء فلا يعجل عن عشائه، عن عائشة – رضي الله عنها –.

(٣) تفسيره ٤/٥٦٢.

(٤) تفسيره ص٩٢٩.

(٥) تفسيره ٣٠/١٧٢.

السلف في تعيين المفروغ منه -: "وإنما هو خلاف في الأمثلة، فحذف المتعلَّق هنا لقصد العموم"[١].

**القول الثاني**: فإذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء؛ وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما -[٢]، والضحاك[٣]، وقتادة، ومقاتل، وقال: "أمره إذا فرغ من صلاته أن يبالغ في دعائه"[٤]، واختاره الفراء[٥].

روي عن ابن عباس أنه قال عند هذه الآية: "فإذا فرغت مما فرض عليك من الصلاة فسل الله، وارغب إليه وانصب"[٦].

**القول الثالث**: فإذا فرغت من جهادك عدوك فانصب في عبادة ربك ودعائه؛ وبه قال الحسن[٧]، وقتادة، وزيد بن أسلم[٨].

---

(١) التحرير والتنوير ٤١٧/٣٠.

(٢) أخرجه ابن جرير ٦٢٨/١٢، وذكره في الدر ٦١٧/٦، وعزاه أيضاً لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٣) أخرجه ابن جرير ٦٢٨/١٢، قال: "من الصلاة المكتوبة قبل أن تسلم ما نصب"، وعن مجاهد: "إذا قمت إلى الصلاة فانصب في حاجتك إلى ربك".

(٤) تفسير عبد الرزاق ٤٣٩/٣، وابن جرير ٦٢٩/١٢.

(٥) معاني القرآن ٢٧٥/٣، وذكر قول شريح بسنده ص٢٧٦، وقال: "فكأنه في قول شريح: إذا فرغ الفارغ من الصلاة أو غيرها".

(٦) أخرجه ابن جرير ٦٢٨/١٢.

(٧) أخرجه ابن جرير ٦٢٩/١٢.

(٨) ذكره في الدر ٦١٧/٦، وعزاه لابن أبي حاتم.

قال ابن عطية: "ويعترض هذا التأويل بأن الجهاد فرض بالمدينة"[١]، ولعله يقول بمدينتها أو مدينة هذه الآية، أو أنها مما تأخر حكمه عن نزوله[٢].

واختار هذا القول القاسمي، وقال: "والأظهر عندي اعتماداً على ما صححناه من أن الآية مدنية، وأنها من أواخر ما نزل، أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ أي: فرغت من مقارعة المشركين، وظفرت بأمنيتك منهم، بمجيء نصر الله والفتح، فانصب في العبادة والتسبيح والاستغفار، شكراً لله على ما أنعم، وارغب إليه خاصة ابتغاءً لمرضاته، فتكون الآيتان بمعنى سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾[٣]، ثم رأيت ابن جرير نقل مثله عن ابن زيد عن أبيه قال: فإذا فرغت من الجهاد، جهاد العرب وانقطع جهادهم، فانصب لعبادة الله وإليه فارغب، وهو ظاهر. نعم لفظ الآية عام فيما أثرناه جميعه؛ إلا أن السياق والنظائر - وهو أهم ما يرجع إليه- يؤيد ما قاله ابن زيد واعتمدناه، والله أعلم"[٤].

**القول الرابع**: فإذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل؛ وروي عن ابن مسعود[٥].

**القول الخامس**: فإذا فرغت من التشهد فادع لدنياك وآخرتك؛ وبه قال

---

(١) تفسيره ٣٢٨/١٦.

(٢) انظر: تفسير الألوسي ١٧٢/٣٠.

(٣) سورة النصر: الآية ١.

(٤) تفسيره ١٨٨/١٧، وانظر: ص١٨٢.

(٥) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم، انظر: الدر ٦١٧/٦.

الشعبي، والزهري[١]، ولعلّ هذا بمعنى القول الثاني، فقد روي عن ابن عباس: "إذا فرغت من صلاتك وتشهدت فانصب إلى ربك واسأله حاجتك"[٢].

**القول السادس**: إذا صح بدنك فاجعل صحتك نصباً في العبادة، ذكره علي بن أبي طلحة[٣]، ولعل هذا دخل في معنى القول الأول.

وهناك أقوال أخرى في الآية[٤].

والراجح – والله أعلم – القول الأول قول شيخ الإسلام، ومن وافقه لأنه كما قال النحاس: "جامع لجميع الأقوال".

---

(١) ذكره عنهما الواحدي في الوسيط ٥٢١/٤، وانظر: السمعاني ٢٥٢/٦.

(٢) ذكره في الدر ٦١٧/٦، وعزاه لابن مردويه.

(٣) ذكره ابن الجوزي ٢٧٣/٨.

(٤) انظر: تفسير الثعلبي ٤٢٧/١٠، والماوردي ٢٩٩/٦.

# سورة التين: الآيتان ٥ - ٦

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾[1].

رجح شيخ الإسلام أن المراد بقوله تعالى: ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ العذاب بعد الموت، وأن الاستثناء في الآية متصل.

قال - رحمه الله -: "وفي قوله: ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ قولان: قيل: الهرم، وقيل: العذاب بعد الموت، وهذا الذي دلت عليه الآية قطعاً، فإنه جعله في أسفل سافلين إلا المؤمنين، والناس نوعان: فالكافر بعد الموت يعذب في أسفل سافلين، والمؤمن في عليين.

وأما القول الأول ففيه نظر؛ فإنه ليس كل من سوى المؤمنين يهرم فيرد إلى أسفل سافلين، بل كثير من الكفار يموت قبل الهرم، وكثير من المؤمنين يهرم، وإن كان حال المؤمن في الهرم أحسن حالاً من الكافر، فكذلك في الشباب حال المؤمن أحسن من حال الكافر، فجعل الرد إلى أسفل سافلين في آخر العمر وتخصيصه بالكفار ضعيف.

ولهذا قال بعضهم: إن الاستثناء منقطع على هذا القول، وهو أيضاً ضعيف، فإن المنقطع لا يكون في الموجب، ولو جاز هذا لجاز لكل أحد أن يدعي في أي استثناء شاء أنه منقطع، وأيضاً فالمنقطع لا يكون الثاني منه بعض الأول،

---

(١) سورة التين: الآيتان ٥ – ٦.

والمؤمنون بعض نوع الإنسان، وقد فسر ذلك بعضهم على القول الأول بأن المؤمن يكتب له ما كان يعمله إذا عجز...، فيقال: وهذا أيضا ثابت في حال الشباب إذا عجز الشاب لمرض أو سفر؛ كما في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: "إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم"(١)، وفسره بعضهم بما روي عن ابن عباس أنه قال: من قرأ القرآن فإنه لا يرد إلى أرذل العمر.

فيقال: هذا مخصوص بقارئ القرآن، والآية استثنت الذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواء قرءوا القرآن أو لم يقرءوه، وقد قال النبيﷺ في الحديث الصحيح: "مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها"(٢).

وأيضاً فيقال: هرم الحيوان ليس مخصوصاً بالإنسان، بل غيره من الحيوان إذا كبر هرم، وأيضاً فالشيخ وإن ضعف بدنه فعقله أقوى من عقل الشاب، ولو قدر أنه ينقص بعض قواه فليس هذا رداً إلى أسفل سافلين، فإنه سبحانه إنما يصف الهرم بالضعف كقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾(٣)،

---

(١) أخرجه البخاري ١٦٥/٦ ح٢٩٩٦، كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، عن أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري ٦٨٦/٩ ح٥٤٢٧، كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام، ومسلم ٥٤٩/١ ح٧٩٧، كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة حافظ القرآن، عن أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) سورة الروم: الآية ٥٤.

وقوله: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ﴾[١]، فهو يعيده إلى حال الضعف، ومعلوم أن الطفل ليس هو في أسفل سافلين فالشيخ كذلك وأولى، وإنما في أسفل سافلين من يكون في سجين لا في عليين كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[٢].

ومما يبين ذلك قوله: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾[٣]، فإنه يقتضي ارتباط هذا بما قبله لذكره بحرف الفاء، ولو كان المذكور إنما هو رده إلى الهرم دون ما بعد الموت لم يكن هناك تعرض للدين والجزاء، بخلاف ما إذا كان المذكور أنه بعد الموت يرد إلى أسفل سافلين غير المؤمن المصلح؛ فإن هذا يتضمن الخبر بأن الله يدين العباد بعد الموت فيكرم المؤمنين ويهين الكافرين، وأيضاً فإنه سبحانه أقسم على ذلك بأقسام عظيمة بالتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين، وهي المواضع التي جاء منها محمد والمسيح وموسى، وأرسل الله بها هؤلاء الرسل مبشرين ومنذرين، وهذا الإقسام لا يكون على مجرد الهرم الذي يعرفه كل أحد؛ بل على الأمور الغائبة التي تؤكد بالأقسام..."[٤].

**الدراسة:**

في هاتين الآيتين مسألتان:

---

(١) سورة يس: الآية ٦٨.

(٢) سورة النساء: الآية ١٤٥.

(٣) سورة التين: الآية ٧.

(٤) مجموع الفتاوى ٢٧٩/١٦ – ٢٨٣.

**المسألة الأولى**: المراد بـ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾، وقد اختلف المفسرون في ذلك على قولين:

**القول الأول**: أن المراد بذلك النار؛ وبه قال أبو العالية[١]، ومجاهد[٢]، والحسن[٣]، وابن زيد[٤].

وقد رجحه ابن القيم لوجوه عشرة منها:

١ – أن أرذل العمر لا يسمى أسفل سافلين لا في لغة ولا عرف، وإنما أسفل سافلين هو سجين الذي هو مكان الفجار كما أن عليين مكان الأبرار.

٢ – أن المردودين إلى أسفل العمر بالنسبة إلى نوع الإنسان قليل جداً، فأكثرهم يموت ولا يرد إلى أرذل العمر.

٣ – أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون هم وغيرهم في رد من طال عمره منهم إلى أرذل العمر، فليس ذلك مختصاً بالكفار حتى يستثنى منهم المؤمنين.

٤ – أن الله سبحانه لما أراد ذلك لم يخصه بالكفار بل جعله لجنس بني آدم فقال: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾[٥]، فجعلهم قسمين: قسماً متوفى قبل

---

(١) أخرجه ابن جرير ٢٤/٥١٥ [ ط التركي ]، وانظر: الثعلبي ١٠/٢٤٠.

(٢) أخرجه ابن جرير ٢٤/٥١٥ [ ط التركي ]، وانظر: الدر ٦/٦٢٠.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٣/٤٤١ [ ط محمود ]، وابن جرير ٢٤/٥١٥ [ ط التركي ].

(٤) أخرجه ابن جرير ٢٤/٥١٥ [ ط التركي ].

(٥) سورة الحج: الآية ٥.

الكبر، وقسماً مردوداً إلى أرذل العمر، و لم يسمه أسفل سافلين.

٥ – أنه لا تحسن المقابلة بين أرذل العمر وبين جزاء المؤمنين، وهو سبحانه قابل بين جزاء هؤلاء وجزاء أهل الإيمان، فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين، وجزاء المؤمنين أجراً غير ممنون.

٦ – أنه سبحانه ذكر حال الإنسان في مبدأه ومعاده؛ فمبدؤه خلقه في أحسن تقويم، ومعاده رده إلى أسفل سافلين أو إلى أجر غير ممنون، وهذا موافق لطريقة القرآن وعادته في ذكر مبدأ العبد ومعاده"[١].

وعلى هذا القول تكون الآية في الكفار أو في كافر بعينه[٢].

وعلى هذا القول يكون انتصاب ﴿أَسْفَلَ﴾ على نزع الخافض، أي إلى أسفل، أو صفةٌ لمصدر محذوف أي مكاناً أسفل سافلين، أو حال أو مفعول ثان لرَدَّ[٣].

واختاره بعض المفسرين، وممن اختاره الفراء[٤]، وشيخ الإسلام وابن القيم – كما تقدم –، وابن كثير[٥]، والسعدي[٦]، وابن عاشور[٧].

---

(١) التبيان ص٣١.

(٢) تفسير السمعاني ٢٥٣/٦.

(٣) انظر: السمين ٥٢/١١، والألوسي ١٧٥/٣٠.

(٤) المعاني ٧٧/٣.

(٥) تفسيره ٥٦٣/٤.

(٦) تفسيره ص٩٢٩.

(٧) التحرير والتنوير ٤٢٧/٣٠.

والنار أسفل سافلين؛ لأن جهنم - أعاذنا الله منها - بعضَها أسفلُ من بعض، والمعنى: إلى أسفل سافلين[١].

**القول الثاني**: أن المراد بذلك أرذلُ العمر؛ وبه قال ابن عباس[٢]، وإبراهيم[٣]، وعكرمة[٤]، والضحاك[٥]، وقتادة[٦]، والكلبي[٧]، وإبراهيم النخعي[٨].

واختاره بعض المفسرين، وممن اختاره ابن جرير كما يأتي، وابن قتيبة[٩]، والزجاج[١٠]، والسمرقندي[١١]، والثعلبي[١٢]، والواحدي[١٣]، والبغوي[١٤]، وابن عطية كما يأتي.

---

(١) الوسيط للواحدي ٥٢٤/٤.

(٢) أخرجه ابن جرير ٥١٣/٢٤ [ ط التركي ]، وانظر: الدر ٦٢٠/٦.

(٣) أخرجه ابن جرير ٥١٤/٢٤ [ ط التركي ]، وانظر: الدر ٦٢١/٦.

(٤) أخرجه ابن جرير ٥١٣/٢٤ [ ط التركي ]، وانظر: الدر ٦٢١/٦.

(٥) أخرجه عبد بن حميد، انظر: الدر ٦٢١/٦.

(٦) أخرجه عبد الرزاق ٤٤١/٣ [ ط محمود ]، وابن جرير ٥١٤/٢٤ [ ط: التركي ].

(٧) أخرجه عبدالرزاق ٤٤١/٣ [ ط محمود عبده ].

(٨) ذكره في الدر ٦٢١/٦، وعزاه للفريابي وابن حميد.

(٩) التأويل ص٣٤٢.

(١٠) معاني القرآن وإعرابه ٣٤٣/٥.

(١١) تفسيره ٤٩١/٣.

(١٢) تفسيره ٢٤٠/١٠.

(١٣) الوسيط ٥٢٤/٤.

(١٤) تفسيره ٥٠٤/٤.

ورجح ابن جرير هذا القول محتجاً له بسياق الآيات، حيث سيقت للرد على منكري البعث، وإليك نص كلامه رحمه الله: "وأولى الأقوال عندي بالصحة في ذلك عندي بالصحة وأشبهها بتأويل الآية قول من قال معناه: ثم رددناه إلى أرذل العمر إلى عمر الخَرْف الذين ذهبت عقولهم من الهرم والكبر، فهو في أسفل من سفل في إدبار العمر وذهاب العقل.

وإنما قلنا: هذا القول أولى بالصواب في ذلك؛ لأن الله تعالى ذكره أخبر عن خلقه ابن آدم وتصريفه في الأحوال احتجاجاً بذلك على منكري قدرته على البعث بعد الموت؛ ألا ترى أنه يقول: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾[1]، يعني: بعد هذه الحجج، ومحال أن يحتج على قوم كانوا منكرين معنى من المعاني بما كانوا له منكرين، وإنما الحجة على كل قوم بما لا يقدرون على دفعه مما يعاينونه ويحسونه أو يقرون به؛ وإن لم يكونوا له محسين، وإذا كان ذلك كذلك وكان القوم للنار التي كان الله يتوعدهم بها في الآخرة منكرين، وكانوا لأهل الهرم والخرف من بعد الشباب والجلد شاهدين، علم أنه إنما احتج عليهم بما كانوا له معاينين، من تصريفه خلقه ونقله إياهم من حال التقويم الحسن والشباب والجَلَد، إلى الهرم والضعف وفناء العمر وحدوث الخرف"[2].

قال النحاس: "وقال غيره: هذا – أنه لايحتج عليهم بما ينكرونه من البعث – لا يلزم؛ لأن حجج الله ظاهرة، وقد ظهرت آيات نبيه ﷺ فوجب أن يكون كل

---

(١) سورة التين: الآية ٧.

(٢) تفسيره ٥١٦/٢٤ [ ط التركي ].

ما أخبر به بمنْزلة المُعَايَن"[١].

وقال ابن قتيبة: "والسَّافلون: هم الضعفاء، والزَّمْنَى والأطفال، ومن لا يستطيع حيلة ولا يجد سبيلا، وتقول سَفَل يَسْفُل فهو سافل، وهم سافلون، كما تقول: علا يَعْلُو فهو عالٍ، وهم عالون، وهو مثل قوله سبحانه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾[٢]، وأراد: أن الهَرِمَ يخْرَف، ويُهترُ[٣]، وينقص خَلْقُه، ويضعف بصره وسمعه، وتقل حيلته، ويعجز عن عمل الصالحات فيكون أسفلَ من هؤلاء جميعاً"[٤].

وقال ابن عطية: "وهذا قول حسن وليس المعنى أن كل إنسان يعتريه هذا، بل في الجنس من يعتريه ذلك، وهذه عبرة منصوبة"[٥].

وتقدم تضعيف شيخ الإسلام لهذا القول بأنه ليس كل كافر يهرم، بل منهم من يموت قبل ذلك، وأن كثيراً من المؤمنين يصيبه الهرم.

وقال ابن كثير: "ولو كان هذا هو المراد لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك؛ لأن الهرم قد يصيب بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه – أي النار–، كقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

(١) إعراب القرآن ٢٥٧/٥.

(٢) سورة الحج: الآية ٥.

(٣) الْهُتْرُ: ذهاب العقل، من مرض أو كبَر أو حُزن ونحوها. المعجم الوسيط ٩٧١/٢، مادة (هتر).

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٣٤٢، وانظر: الوسيط للواحد ٥٢٤/٤، والبغوي ٥٠٤/٤.

(٥) تفسيره ٣٣١/١٦، وانظر: البحر المحيط ٤٨٦/٨.

ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾[١]"[٢].

والراجح – والله أعلم – القول الأول، وذلك لقوة أدلته، ولورود الاعتراضات على القول الثاني، وتقدم بيان ذلك.

**المسألة الثانية**: المراد بالاستثناء في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾[٣] وقد اختلف المفسرون فيه على ثلاثة أقوال:

**القول الأول**: أن الاستثناء متصل، والمعنى: إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يردون إلى النار، أو ردوهم إلى النار إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون.

وهذا القول مبني على القول الأول في المسألة الأولى وهو أن المراد بأسفل سافلين: النار؛ وبه قال مجاهد[٤].

وقال الحسن: "وهي كقوله: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾"[٥].

ومعنى الإنسان على هذا القول: الناس، قال الفراء: "ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ استثناء من الإنسان؛ لأن معنى الإنسان الكثير، ومثله:

---

(١) سورة العصر: الآيات ١ – ٣.

(٢) تفسيره ٥٦٣/٤.

(٣) سورة التين: الآية ٦.

(٤) أخرجه ابن جرير ٥٢٠/٢٤ [ ط التركي ].

(٥) تفسير عبد الرزاق ٤٤١/٣، وابن جرير ٥٢١/٢٤ [ ط التركي ].

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ وهي قراءة عبد الله: (أسفل السافلين).. فقيل سافلين على الجميع؛ لأن الإنسان في معنى جمع"[١].

وقال ابن جرير: "وإنما جاز استثناء ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾، وهم جمع من الهاء في قوله: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ ﴾، وهي كناية الإنسان، والإنسان في لفظ واحد؛ لأن الإنسان وإن كان في لفظ واحد فإنه في معنى الجمع؛ لأنه بمعنى الجنس"[٢].

وقال البغوي: "و﴿ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴾ نكرة تعمُّ الجنس، كما تقول: فلان أكرم قائم"[٣].

واختاره بعض المفسرين، وممن اختاره الفراء[٤]، وشيخ الإسلام وابن القيم كما تقدم، وابن عاشور[٥].

**القول الثاني**: أن المعنى: إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإنهم لا يردون إلى الهرم وأرذل العمر، والاستثناء على هذا منقطع[٦].

وروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: "من قرأ القرآن لم يرد

---

(١) معاني القرآن ٢٧٧/٣.

(٢) تفسير ابن جرير ٥١٦/٢٤ [ ط التركي ]، وانظر: إعراب القرآن للنحاس ٢٥٧/٥، وتفسير السمعاني ٢٥٤/٦.

(٣) تفسير البغوي ٥٠٤/٤.

(٤) المعاني ٢٧٧/٣.

(٥) تفسيره ٤٢٩/٣٠.

(٦) انظر: تفسير ابن جرير ٥١٧/٢٤، وإعراب القرآن للنحاس ٢٥٧/٥.

إلى أرذل العمر، ثم قرأ: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، قال: لا يكونُ حتى لا يعلم بعد علم شيئاً"(١).

وروي عن عكرمة أنه قال: "من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر، ثم قرأ: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، قال: لا يكونُ حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً"(٢)، وعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً، ويكون ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ مُسْتَثْنَين ممن يُردُّ إلى أسفل سافلين(٣).

وقد ردّ شيخ الإسلام القول بأن الاستثناء منقطع، وقال: "إن المنقطع لا يكون في الموجَب"(٤)، وتقدم ذكر كلامه.

كما ردَّ تخصيصه بقارئ القرآن، وقال: إن الآية استثنت الذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواء قرأوا القرآن أو لم يقرأوه.

وضعفَّه ابن القيم بأن الاستثناء عام في المؤمنين قارئهم وأميهم، وأنه لا دليل على ما ادعوه، وهذا لا يعلم بالحس ولا خبر يجب التسليم له يقتضيه(٥).

---

(١) أخرجه الحاكم ٥٢٨/٢، والواحدي ٥٢٥/٤، وغيرهما.

(٢) أخرجه ابن جرير ٥١٧/٢٤ [ ط التركي ]، وانظر: الدر ٦٢١/٦.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير ٥١٧/٢٤ [ ط التركي ].

(٤) الموجَب: المثبت. انظر: شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك ١٥٠/٢ – ١٥١.

(٥) التبيان ص٣٢.

**القول الثالث**: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات قد يدخلون في الذين رُدُّوا إلى أسفل سافلين؛ لأن أرذْل العمر قد يرد إليه المؤمن والكافر... وإنما معنى الاستثناء: ثم رددناه أسفل سافلين فذهبت عقولهم، وانقطعت أعمالهم، فلم تثبت لهم بعد ذلك حسنة، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ فإن الذي كانوا يعملونه من الخير في حال صحة عقولهم وسلامة أبدانهم جار لهم بعد هرمهم وخرفهم(١).

وبهذا قال ابن عباس - رضي الله عنهما -(٢)، وإبراهيم النخعي(٣)، وعكرمة(٤)، وقتادة(٥)، ورجح ابن جرير هذا القول، بناءً على ترجيحه أن المراد بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ إلى أرذل العمر(٦).

واختاره الثعلبي(٧).

وعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير ٥١٧/٢٤ [ ط التركي ].

(٢) أخرجه ابن جرير ٥١٧/٢٤ [ ط التركي ]، وعنه رضي الله عنه: "يُوفيه الله أجره أو عمله ولا يؤاخذه إذا رُدَّ إلى أرذل العمر"المصدر السابق ٥٢٠/٢٤، وعنه: "هم نفرٌ ردوا إلى أرذل العمر على عهد رسول الله ﷺ، فسئل رسول الله ﷺ حيث سفهت عقولهم، فأنزل الله عذرهم أن لهم أجر الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم"المصدر السابق ٥١٣/٢٤، وانظر: الدر ٦٢٠/٦.

(٣) أخرجه ابن جرير ٥١٨/٢٤ - ٥١٩ [ ط التركي ].

(٤) أخرجه ابن جرير ٥٢٠/٢٤ [ ط التركي ]، وانظر: الدر ٦٢١/٦.

(٥) أخرجه ابن جرير ٥٢٠/٢٤ [ ط التركي ].

(٦) تفسير ابن جرير ٥٢١/٢٤ [ ط التركي ].

(٧) تفسيره ٢٤١/١٠.

كان العبد على طريقة من الخير فمرض أو سافر كتب الله له مثل ما كان يعمل ثم قرأ: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾"[١].

وضعَّفه ابن القيم بأن الاستثناء إنما وقع من الرد لا من الأجروالعمل[٢].

وقيل: إن قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ غير متصل بما قبله، بل هو استثناء منقطع، والمعنى: لكن الذين آمنوا لهم أجر غير ممنون[٣].

والاستثناء على القول الأول متصل ظاهر الاتصال، وعلى الثاني منقطع يعني: ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمي، فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله بالشيخوخة والهرم[٤].

والراجح – والله أعلم – القول الأول، وأن الاستثناء متصل؛ لأن المراد بـ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ النار – أعاذنا الله منها – وتقدم تقرير ذلك في المسألة الأولى، وأما القولان الآخران فهما ضعيفان، وذلك لما يَرِدُ عليهما من الاعتراضات الظاهرة.

---

(١) ذكره في الدر ٦٢٢/٦، وعزاه لابن مردويه، وأصله في الصحيح بدون ذكر الآية، وتقدم تخريجه.

(٢) التبيان ص٣٢.

(٣) تفسير السهيلي ٥٨٨/٢.

(٤) الكشاف ٢٢٣/٤، وانظر: تفسير الرازي ٢١/٣١، وأبي حيان ٤٨٦/٨.

# سورة التين: الآية ٧

قال تعالى: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن الخطاب في الآية للرسول ﷺ.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "وفي قوله: ﴿ يُكَذِّبُكَ ﴾ قولان. قيل: هو خطاب للإنسان كما قال مجاهد وعكرمة ومقاتل و لم يذكر البغوي غـــيره. قال عكرمة: يقول: فما يكذبك بعد بهذه الأشياء التي فعلت بك. وعن مقاتل: فما الذي يجعلك مكذباً بالجزاء، وزعم أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة.

والثاني: أنه خطاب للرسول وهذا أظهر، فإن الإنسان إنما ذكر مخبراً عنه لم يخاطب، والرسول هو الذي أنزل عليه القرآن والخطاب في هذه السور له كقوله: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾[٢]، وقوله: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[٣]، وقوله: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾[٤]، والإنسان إذا خوطب قيل له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾[٥]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾[٦]، وأيضاً فبتقدير أن يكون خطابا للإنسان يجب أن يكون خطابا

---

(١) سورة التين: الآية ٧.

(٢) سورة الضحى: الآية ٣.

(٣) سورة الشرح: الآية ١.

(٤) سورة العلق: الآية ١.

(٥) سورة الانفطار: الآية ٦.

(٦) سورة الانشقاق: الآية ٦.

للجنس كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾ وعلى قول هؤلاء إنما هو خطاب للكافر خاصة المكذب بالدين، وأيضا فإن قوله: ﴿ يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ﴾ أي: يجعلك كاذبا هذا هو المعروف من لغة العرب؛ فإن استعمال (كذب غيره أي نسبه إلى الكذب وجعله كاذباً) مشهور، والقرآن مملوء من هذا، وحيث ذكر الله تكذيب المكذبين للرسل أو التكذيب بالحق، ونحو ذلك فهذا مراده، لكن هذه الآية فيها غموض من جهة كونه قال: ﴿ يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ﴾ فذكر المكذب بالدين - فذكر المكذب والمكذب به جميعا. وهذا قليل - جاء نظيره في قوله: ﴿ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾[1]، فأما أكثر المواضع فإنما يذكر أحدهما إما المكذب؛ كقوله: ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[2]، وإما المكذب به؛ كقوله: ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ ﴾[3]، وأما الجمع بين ذكر المكذب والمكذب به فقليل، ومن هنا اشتبهت هذه الآية على من جعل الخطاب فيها للإنسان وفسر معنى قوله: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾: فما يجعلك مكذِّباً. وعبارة آخرين: فما يجعلك كذاباً. قال ابن عطية: وقال جمهور من المفسرين: المخاطب الإنسان الكافر أي ما الذي يجعلك كذاباً بالدين تجعل لله أنداداً وتزعم أن لا بعث بعد هذه الدلائل؟.

---

(١) سورة الفرقان: الآية ١٩.

(٢) سورة الشعراء: الآية ١٠٥.

(٣) سورة الفرقان: الآية ١١.

قلت: وكلا القولين غير معروف في لغة العرب أن يقول: (كذبك أي جعلك مكذباً) بل (كذبك: جعلك كذاباً)، وإذا قيل: (جعلك كذاباً) أي: كاذبا فيما يخبر به كما جعل الكفار الرسل كاذبين فيما أخبروا به فكذبوهم، وهذا يقول: جعلك كاذباً بالدين، فجعل كذبه أنه أشرك وأنه أنكر المعاد، وهذا ضد الذي ينكر. ذاك جعله مكذباً بالدين، وهذا جعله كاذباً بالدين. والأول فاسد من جهة العربية والثاني فاسد من جهة المعنى؛ فإن الدين هو الجزاء الذي كذب به الكافر، والكافر كذب به لم يكذب هو به، وأيضاً فلا يعرف في المخبر أن يقال: (كذبت به) بل يقال: (كذبته).

وأيضاً فالمعروف في (كذبه) أي: نسبه إلى الكذب؛ لا أنه جعل الكذب فيه، فهذا كله تكلف لا يعرف في اللغة، بل المعروف خلافه، وهو لم يقل: (فما يكذبك)، ولا قال: (فما كذبك)؛ ولهذا كان علماء العربية على القول الأول. قال ابن عطية: واختلف في المخاطب بقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ فقال قتادة والفراء والأخفش: هو محمد ﷺ، قال الله له: فما الذي يكذبك فيما تخبر به من الجزاء والبعث وهو الدين بعد هذه العبرة التي يوجب النظر فيها صحة ما قلت؟. قال: ويحتمل أن يكون الدين على هذا التأويل جميع شرعه ودينه.

قلت: وعلى أن المخاطب محمد ﷺ في المعنى قولان:

أحدهما: قول قتادة قال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ أي: استيقن فقد جاءك البيان من الله، وهكذا رواه عنه ابن أبي حاتم بإسناد ثابت، وكذلك ذكره المهدوي: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ أي: استيقن مع ما جاءك من الله أنه أحكم الحاكمين. فالخطاب للنبي ﷺ؛ وقال: معناه عن قتادة. قال: وقيل المعنى:

فما يكذبك أيها الشاك يعني الكفار في قدرة الله؟ أي شيء يحملك على ذلك بعد ما تبين لك من قدرته؟ قال: وقال الفراء: فمن يكذبك بالثواب والعقاب؟ وهو اختيار الطبري.

قلت: هذا القول المنقول عن قتادة هو الذي أوجب نفور مجاهد عن أن يكون الخطاب للنبي ﷺ كما روى الناس ومنهم ابن أبي حاتم، عن الثوري، عن منصور[1] قال: قلت لمجاهد: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ عنى به النبي ﷺ؟ قال: معاذ الله، عنى به الإنسان. وقد أحسن مجاهد في تنْزيه النبي ﷺ أن يقال له: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أي: استيقن ولا تكذب، فإنه لو قيل له: (لا تكذب)؛ لكان هذا من جنس أمره بالإيمان والتقوى ونهيه عما نهى الله عنه، وأما إذا قيل: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ فهو لم يكذب بالدين بل هو الذي أخبر بالدين وصدق به فهو الذي جاء بالصدق وصدق به، فكيف يقال له: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾؟ فهذا القول فاسد لفظاً ومعنى. واللفظ الذي رأيته منقولاً بالإسناد عن قتادة ليس صريحاً فيه، بل يحتمل أن يكون أراد به خطاب الإنسان؛ فإنه قال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ قال: استيقن فقد جاءك البيان. وكل إنسان مخاطب بهذا، فإن كان قتادة أراد هذا فالمعنى صحيح، لكن هم حكوا عنه أن هذا خطاب للرسول ﷺ وعلى هذا فهذا المعنى باطل، فلا يقال للرسول: (فأي شيء يجعلك مكذبا بالدين؟)، وإن ارتأت به النفس لأن هذا فيه دلائل تدل

---

(١) هو منصور بن حيَّان بن حصين الأسدي، ثقة، سمع الشعبي، وروى عنه سفيان الثوري وشعبة. انظر: التاريخ الكبير ٣٤٧/٧، وتقريب التهذيب ص٥٤٦.

على فساده؛ ولهذا استعاذ منه مجاهد.

والصواب ما قاله الفراء والأخفش وغيرهما، وهو الذي اختاره أبو جعفر محمد بن جرير الطبري وغيره من العلماء كما تقدم، وكذلك ذكره أبو الفرج ابن الجوزي عن الفراء ..."[١].

## الدراسة:

اختلف المفسرون في معنى هذه الآية على ثلاثة أقوال:

**القول الأول**: أن المعنى فمن يكذِّبك أيها الإنسان بعد هذه الحجج بالدين، أي بالبعث والجزاء، وهذا توبيخ للكافر، و(ما) هنا موصولة، وبه قال مجاهد[٢]، والكلبي[٣]، وعن مقاتل أنه قال: "فما يكذبك أيها الإنسان بعد بيان الصورة الحسنة والشباب ثم الهرم بعد ذلك بالحساب"[٤].

قال القرطبي: "وقيل: الخطاب للكافر توبيخاً وإلزاماً للحجة، أي إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردُّك إلى أرذل العمر، وينقلك من حال إلى حال؛ فما يحملك على أن تكذِّب بالبعث والجزاء، وقد أخبرك

---

(١) مجموع الفتاوى ١٦/٢٨٣ – ٢٨٩.

(٢) أخرجه ابن جرير ٢٤/٥٢٣ [ ط التركي ]، وذكره في الدر ٦/٦٢٢، وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٣/٤٤١ ط، وابن جرير ٢٤/٥٢٤ [ ط التركي ].

(٤) الوسيط للواحدي ٤/٢٦.

محمد ﷺ به"[١].

واختاره جمهور المفسرين، وممن اختاره الأخفش[٢]، وابن قتيبة[٣]، والسمرقندي[٤]، والثعلبي[٥]، والواحدي[٦]، والسمعاني[٧]، والبغوي[٨]، ونسبه ابن عطية للجمهور[٩]،وابن القيم كما يأتي، وأبو حيان[١٠] ونسبه للجمهور، والسعدي[١١]، وابن عاشور[١٢].

قال ابن القيم: "أصح القولين أن هذا خطاب للإنسان، أي: فما يكذبك بالجزاء والمعاد بعد هذا البيان وهذا البرهان فتقول إنك لا تبعث ولا تحاسب، ولو تفكرت في مبدأ خلقك وصورتك لعلمت أن الذي خلقك أقدر على أن يعيدك بعد موتك وينشئك خلقاً جديداً، وأن ذلك لو أعجزه لأعجزه وأعياه

---

(١) تفسيره ٢٠/٧٩.

(٢) المعاني ٢/٥٨١.

(٣) تأويل مشكل القرآن ص٣٤٢.

(٤) تفسيره ٣/٤٩٢.

(٥) تفسيره ١٠/٢٤١.

(٦) الوسيط ٤/٥٢٩.

(٧) تفسيره ٦/٢٥٤.

(٨) تفسيره ٤/٥٠٥.

(٩) المحرر الوجيز ١٦/٣٣٢.

(١٠) البحر المحيط ٨/٤٨٦.

(١١) تفسيره ص٩٣٠.

(١٢) التحرير والتنوير ٣٠/٤٣٠.

خلقك الأول، وأيضاً فإن الذي كمَّل خلقك في أحسن تقويم، بعد أن كنت نطفة من ماء مهين، كيف يليق به أن يتركك سدى، لا يكمل ذلك بالأمر والنهي وبيان ما ينفعك ويضرك ولا تنقل لدار هي أكمل من هذه ويجعل هذه الدار طريقاً لك إليها، فحكمة أحكم الحاكمين تأبى ذلك وتقضي خلافه..."[١].

وقال ابن عاشور: "و(ما) يجوز أن تكون استفهامية، والاستفهام توبيخي، والخطاب للإنسان المذكور في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، فإنه بعد أن استثنى منه الذين آمنوا بقي الإنسان المكذب، وضمير الخطاب التفات، ومقتضى الظاهر أن يقال: فما يكذبه، ونكتة الالتفات هنا أنه أصرح في مواجهة الإنسان المكذب بالتوبيخ، ومعنى ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ يجعلك مُكذباً، أي: لا عذر لك في تكذيبك بالدين"[٢].

وقد ضعف هذا القول شيخُ الإسلام كما تقدم.

**القول الثاني**: أن المعنى: فمن يُكذِّبك يا محمد بَعدَ هذه الحجج التي احتججنا بها بطاعة الله وما بعثك به من الحق، وأن الله يبعث من في القبور، أي يجعلك كاذباً، وقالوا: (ما) هنا بمعنى (مَن)[٣]؛ وروي عن قتادة[٤].

---

(١) التبيان ص٣١.
(٢) تفسيره ٤٣٠/٣٠.
(٣) تفسير ابن جرير ٥٢٣/٢٤ [ ط التركي ]، وانظر: ابن عطية ٣٣٢/١٦.
(٤) ذكره عنه ابن عطية ٣٣٢/١٦، ولعله يريد قوله الآتي في القول الثالث، ويأتي التعليق عليه.

واختاره الفراء[١]، وقال: "يقول: فما الذي يكذبك بأن الناس يدانون بأعمالهم؛ كأنه قال: فمن يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعدما تبين له من خلقنا الإنسان على ما وصفنا"[٢].

واختاره ابن جرير[٣].

قال أبو جعفر النحاس: "وزعم الفراء والأخفش أن المعنى: فمن يكذبك بعد بالدين، وهذا لا يُعرَّج عليه، ولا تقع (ما) بمعنى (مَنْ) إلا في شذوذ، والمعنى ههنا صحيح، أي: فما يحملك يا أيها المكذب، فأي شيء يحملك على التكذيب بعد ظهور البراهين والدلائل بالدين الذي جاء بخبره من أظهر البراهين"[٤].

وقد اختار هذا القول شيخ الإسلام كما تقدم.

**القول الثالث**: أن الخطاب للرسول ﷺ والمعنى استيقِنْ بعدما جاءك من الله

---

(١) ونسبه أبو حيان ٤٨٦/٨ للأخفش، وكذا نسبه إليه شيخ الإسلام، والذي في معانيه أنه يختار الثاني، حيث قال عند هذه الآية: "فجعل (ما) للإنسان، وفي هذا القول يجوز: (ما جاءني زيدٌ) في معنى (الذي جاءني زيد)"٥٨١/٢.

(٢) معاني القرآن ٢٧٧/٣.

(٣) تفسير ابن جرير ٥٢٣/٢٤ [ ط التركي ]

(٤) إعراب القرآن ٢٥٩/٥، والذي يظهر أن الأخفش يختار القول الثاني، حيث قال في معانيه ٥٨١/٢: "جعل (ما) للإنسان، وفي هذا القول يجوز: (ما جاءني زيد) في معنى: (الذي جاءني زيد)"، وانظر التبيان لابن القيم ص٣٤، وقد ذهب ابن عطية إلى أن قول الفراء والأخفش بمعنى واحد، انظر: تفسيره ٣٣٢/١٦.

البيان أن الله أحكم الحاكمين، ونُسب[١] لقتادة، حيث قال عند هـذه الآيـة: "استيقن..."[٢].

وهذا ليس فيه تصريح بأن المراد النبي ﷺ، بل يحتمل أن مراده بذلك أنـه خطاب للإنسان كما ذكر شيخ الإسلام، وتقدم ذكر كلامه حول هذا الأثـر، وأنه إن أُريد به الإنسان، فهو صحيح، وإن أُريد به الرسول ﷺ فهو فاسد لفظاً ومعنى.

ولذلك ينبغي اطِّراح هذا القول، ما دام أنه لا تصح نسبته لقتادة، و لم يثبت عن أحد من السلف لا سيما وأن معناه باطل.

والراجح – والله أعلم – القول الثاني، وأن المراد بذلك الإنسان لوروده عن بعض السلف، ولدلالة السياق عليه.

---

(١) نسبه إليه ابن جرير ٦٤٢/١٢، فهماً منه لأثره.

(٢) أخرجه ابن جرير ٥٢٤/٢٤ [ ط التركي ].

# سورة البينة: الآية ١

قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾[1].

رجح شيخ الإسلام أن معنى الآية: لم يكونوا متروكين حتى يُرْسل إليهم رسول.

قال - رحمه الله -: "وفي معنى الآية ثلاثة أقوال ذكرها غير واحد من المفسرين: هل المراد لم يكونوا منفكين عن الكفر، أو هل لم يكونوا مكذبين بمحمد حتى بعث فلم يكونوا منفكين عن محمد والتصديق بنبوته حتى بعث، أو المراد أنهم لم يكونوا متروكين حتى يرسل إليهم رسول".

ثم ذكر كلام ابن الجوزي، والبغوي، وابن عطية، والثعلبي، حول الآية.

ثم قال: "وهذا القول - يعني القول الثاني - قولُ ابن كيسان والفراء: لم يكن هؤلاء الكفار تاركين صفة محمد ﷺ في كتابهم حتى بعث، فلما بعث تفرقوا فيه – ضعيف لم يُرد بهذه الآية قطعاً؛ فإن الله لم يذكر أهل الكتاب بل ذكر الكفار من المشركين وأهل الكتاب، ومعلوم أن المشركين لم يكونوا يعرفونه ويذكرونه ويجدونه في كتبهم كما كان ذلك عند أهل الكتاب، ولا كانوا قبل مبعثه على دين واحد متفقين عليه، فلما جاء تفرقوا، فيمتنع أن يقال: لم يكن المشركون تاركين لمعرفة محمد وذكره والإيمان به، ولم يكونوا مختلفين

---

(١) سورة البينة: الآية ١.

في ذلك ولا متفرقين فيه حتى بعث، فهذا معنى باطل في المشركين، ولا يستقيم هذا أيضا في أهل الكتاب، فإن الله إنما ذكر الكفار منهم فقال: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، ومعلوم أن الذين كانوا يعرفون نبوته ويقرون به ويذكرونه قبل أن يبعث لم يكونوا كلهم كفاراً؛ بل كان الإيمان أغلب عليهم.

يبين هذا أنه إذا ذكر تفرق الذين أوتوا الكتاب من بعد ما جاءتهم البينة فإنه يعمهم فيقول: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾[1]، وأنه لا يقول: كان الكفار من أهل الكتاب متفقين على الحق حتى جاءتهم البينة، وأيضاً فاستعمال لفظ (الانفكاك) في هذا غير معروف لا يعرف في اللغة له شاهد، فتسمية الافتراق والاختلاف (انفكاكاً) غير معروف.

وأيضاً فهو لم يذكر لـ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ خبراً كما يقال: ما انفكوا يذكرون محمداً، وما زالوا يؤمنون به، ونحو ذلك، وهذه التي هي من أخوات (كان) لا يقال فيها: (ما كنت منفكاً)، بل يقال: (ما انفككت أفعل كذا) فهو يلي حرف (ما).

وأيضاً فليس في اللفظ ما يدل على أن الانفكاك عن أمر محمد خاصة، وأيضا فهذا المعنى مذكور في قوله: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾، فلو أريد بهذه لكان تكريراً محضاً، فقول من قال: لم يكن المشركون وأهل الكتاب تاركين لمعرفة محمد ولذكره ولم يكونوا متفرقين

(١) سورة البينة: الآية ٤.

فيه بل متفقين على الإيمان به حتى جاءهم البينة فتركوا الإيمان به وتفرقوا غير مراد قطعاً.

ومما يبين ذلك قوله: ﴿ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴾ و لم يقل: (حتى أتتهم)، وأولئك لما لم يفهموا معنى الآية ظنوا أن الموضع موضع الماضي، وأن المراد: ما انفكوا عما كانوا عليه إما من كفر وإما من إيمان حتى أتتهم البينة، فلما قيل: ﴿ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴾ أشكل عليهم، وقال بعضهم: لما تأتهم كلها. وأما على المعنى الصحيح فالموضع موضع المضارع كقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ ﴾[1]، فإن المراد: ما كانوا مفكوكين متروك حتى تأتيهم البينة.

والقول الأول أشهر عند المفسرين، ومنهم من [ لم ] يذكر غيره كالبغوي وغيره؛ فإنه معروف عن مجاهد والربيع بن أنس كما في التفسير المعروف عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ قال: منافقين لم يكونوا ليؤمنوا حتى تبين لهم الحق. وقال الربيع بن أنس: لم يزالوا مقيمين على الشك والريبة حتى جاءهم البينة والرسل. وهذا القول يتضمن مدحهم والثناء عليهم بعد مجيء البينة ولهذا احتاج من قاله إلى أن يقول: هذا فيمن آمن من الفريقين في أنه بيان لنعمة الله عليهم، وجعلوا قوله: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ فيمن لم يؤمن منهم بمحمد ﷺ، وهذا أيضاً ضعيف؛ فإن أهل الكتاب تفرقوا واختلفوا قبل إرسال محمد إليهم كما أخبر الله بذلك في غير موضع".

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٧٩.

ثم ذكر الآيات والأحاديث الدالة على ذلك... ثم قال: "**القول الثالث**: وهو أصح الأقوال لفظاً ومعنى، أما من جهة اللفظ ودلالته وبيانه فإن هذا اللفظ هو مستعمل فيما يلزم به الإنسان بغير اختياره ويقهر عليه إذا تخلص منه، يقال: انفك منه كالأسير والرقيق المقهور بالرق والأسر، يقال: فككت الأسير فانفك وفككت الرقبة..."

ثم قال: "فقول: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ أي: لم يكونوا متروكين باختيار أنفسهم يفعلون ما يهوونه لا حجر عليهم كما أن المنفك لا حجر عليه. وهو لم يقل: (مفكوكين) بل قال: ﴿مُنفَكِّينَ﴾، وهذا أحسن فإنه نفي لفعلهم، ولو قال: (مفكوكين) كان التقدير: لم يكونوا مسيبين مخلين، فهو نفي لفعل غيرهم، والمقصود أنهم لم يكونوا متروكين لا يؤمرون ولا ينهون ولا ترسل إليهم رسل بل يفعلون ما شاءوا مما تهواه الأنفس، والمعنى أن الله ما يخليهم ولا يتركهم، فهو لا يفكهم حتى يبعث إليهم رسولاً، وهذا كقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾[1]، لا يؤمر ولا ينهى..."[2].

## الدراسة:

قال الواحدي: "وهذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً، وقد

---

(١) سورة القيامة: الآية ٣٦.

(٢) مجموع الفتاوى ٤٨٢/١٦ - ٥١٠، بتصرف واختصار.

تخبَّط فيها الكبار من العلماء وسلكوا في تفسيرها طرقاً لا تفضي بهم إلى الصواب، والوجه ما أخبرتك به فاحمد الله إذْ أتاك بيانُها من غير لبس ولا إشكال"(١).

واختلف المفسرون في معنى هذه الآية على أقوال ستة:

**القول الأول**: أن المعنى: لم يكونوا – أي اليهود والنصارى والمشركون– منفكين عن الكفر حتى أتتهم البينة، قال مجاهد: "لم يكونوا لينتهوا حتى يتبيَّن لهم الحق"(٢).

والمراد بها الرسول محمد ﷺ(٣)، وروي عن ابن عباس، ومقاتل(٤)، وابن جريج(٥)، وقال قتادة: "القرآن"، واختاره ابن جرير (٦).

وقال قتادة في قوله: ﴿مُنفَكِّينَ﴾: "منتهين عما هم فيه"(٧)، واختاره

---

(١) الوسيط ٥٣٩/٤، وهو يرجح القول الأول، وانظر: تفسير الرازي ٣٧/٣٢، وابن عاشور ٤٦٩/٣٠.

(٢) أخرجه ابن جرير ٦٥٥/١٢، وعزاه في الدر المنثور ٦٤٢/٦ أيضاً للفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم بلفظ: "لم يكونوا ليؤمنوا".

(٣) انظر: النحاس ٢٧٢/٥، وابن عطية ٣٤٣/١٦، وزاد المسير ٢٨٩/٨، ومجموع الفتاوى ٤٨٢/١٦.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٥٣٩/٤.

(٥) أخرجه ابن المنذر، انظر الدر ٦٤٢/٦، واختاره الواحدي في الوسيط ٥٣٩/٤، والزمخشري ٢٢٦/٤، وابن كثير ٥٧٤/٤، لقوله بعدها ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾، وابن تيمية في الجواب ١١١/٣، وقال الفراء: "يعني بعثة محمد ﷺ والقرآن"٢٨١/٣، والقولان متلازمان.

(٦) تفسره ٦٥٥/١٢، وانظر: الدر ٦٤٢/٦.

(٧) أخرجه عبد الرزاق ٤٤٧/٣ [ ط محمود ]، وابن جرير ٦٥٥/١٢، وعزاه في الدر ٦٤٢/٦ أيضاً ==

الزجاج[١]، والثعلبي[٢]، والواحدي[٣]، والزمخشري[٤]، وابن الجوزي[٥]، وابن عاشور[٦]، والبغوي، وقال: "﴿مُنفَكِّينَ﴾ زائلين منفصلين، يقال: فككت الشيء فانفك، أي: انفصل ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ لفظة مستقبل ومعناه الماضي، أي: حتى أتتهم الحجة الواضحة، يعني محمداً ﷺ أتاهم بالقرآن فبيَّن لهم ضلالهم وجهالتهم ودعاهم إلى الإسلام والإيمان، فهذه الآية فيمن آمن من الفريقين، أخبر أنهم لم ينتهوا عن الكفر حتى أتاهم الرسول فدعاهم إلى الإيمان فآمنوا، فأنقذهم الله من الجهل والضلالة، ثم فسَّر البينة فقال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟﴾ يقرأ ﴿صُحُفًا﴾، كتاباً يريد ما يتضمنه الصحف من المكتوب فيها، وهو القرآن لأنه كان يتلو عن ظهر قلبه لا عن كتاب"[٧].

وضعف هذا القول شيخ الإسلام كما تقدم.

**القول الثاني**: أن المعنى: لم يكونوا مكذبين بمحمد ﷺ حتى بُعث، أي: لم

==

لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ قال: "بَرحين"ذكره السيوطي في الدر ٦٤٢/٦، وعزاه لابن المنذر (٧).

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣٤٩/٥.

(٢) تفسيره ٢٦٠/١٠.

(٣) تفسيره الوسيط ٥٣٩/٤.

(٤) تفسيره ٢٢٦/٤.

(٥) زاد المسير ٢٨٩/٨.

(٦) تفسيره ٤٧٢/٣٠.

(٧) تفسيره ٥١٣/٤، وانظر: مجاز القرآن ٣٠٦/٢، والوسيط ٥٣٩/٤.

يكونوا منفكين عن محمد ﷺ والتصديق بنوبته حتى بعث، فلما بعث تفرقوا فيه[١].

قال ابن كيسان: "معناه: لم يكن هؤلاء الكفار تاركين صفة محمد ﷺ حتى بُعث، فلمَّا بعث تفرقوا فيه"[٢].

واختاره ابن جرير، وقال: "وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال: معنى ذلك لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين مفترقين في أمر محمد حتى تأتيهم البينة، وهي إرسال الله إياه رسولاً إلى خلقه رسول من الله، وقوله: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ في هذا الموضع عندي من انفكاك الشيئين أحدهما من الآخر؛ ولذلك صلح بغير خبر، ولو كان بمعنى: (ما زال) احتاج إلى خبر يكون تماماً له، واستؤنف قوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[٣] وهي نكرة على البينة، وهي معرفة كما قيل: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ﴾[٤]، فقال: حتى يأتيهم بيانُ أمر محمد أنه رسول الله، ببعثه الله إياه إليهم، ثم ترجم عن البينة، فقال: تلك البينة ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾، يقول: يقرأ صحفا مطهرة من الباطل"[٥].

واختاره النحاس أيضاً، وقال: "ومعنى القول الثاني لم يكن الكفار متفرِّقين

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير ٦٥٥/١٢، وابن الجوزي ٢٨٩/٨.

(٢) ذكره عنه الثعلبي ٢٦٠/١٠، والقرطبي ٩٥/٢٠، ولفظه: "فلما بعث حسدوه وجحدوه، قال فهو كقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾".

(٣) سورة البينة: الآية ٢.

(٤) سورة البروج: الآيتان ١٥ – ١٦.

(٥) تفسيره ٦٥٦/١٢.

إلا من بعد أن جاءهم الرسول؛ لأنهم فارقوا ما عندهم من صفة النبي ﷺ فكفروا بعد البيان، وهذا القول في العربية أولى؛ لأن ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ لو كان بمعنى (زائلين) لاحتاج إلى خبر، ولكنْ يكون من انفكَّ الشيء من الشيء أي فارقه..."[١].

قال القرطبي: "وعلى هذا فقوله: ﴿ وَٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي: ما كانوا يسيئون القول في محمد ﷺ حتى بُعث، فإنهم كانوا يسمونه الأمين، حتى أتتهم البينة على لسانه وبعث إليهم فحينئذ عادوه"[٢].

والفراء ذكر القولين الأول والثاني ولم يرجح، لكن استدل للثاني بقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾[٣]، وقد ذكر شيخ الإسلام كما تقدم أن القول الثاني هو قوله، وكذا ذكره عنه أبو حيان.

**القول الثالث**: أن المعنى: لم يكونوا متروكين حتى يُرسل إليهم رسول[٤].

قال ابن عطية بعد أن ذكر القولين: "ويتجه في معنى الآية قول ثالث بارع المعنى، وذلك أن يكون المراد: لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله تعالى وقدرته ونظره لهم حتى يبعث إليهم رسولاً منذراً تقوم عليهم به الحجة، وتتم

---

(١) إعراب القرآن ٢٧٢/٥.

(٢) تفسيره ٩٦/٢٠.

(٣) انظر: معاني القرآن ٢٨١/٣.

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٢٨٩/٨.

على من آمن النعمة، فكأنه قال: ما كانوا ليتركوا سدى، ولهذا المعنى نظائر في كتاب الله تعالى"[١].

وهذا الذي اختاره شيخ الإسلام كما تقدم، وقال: "هو أصح الأقوال لفظاً ومعنىً".

**القول الرابع**: قال الثعلبي: "قال بعض أئمة أهل اللغة: قوله ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي: هالكين، من قوله: انفك صَلاَ المرأة[٢] عند الولادة، وهو أن ينفصل ولا يلتئم فتهلك، ومعنى الآية لم يكونوا هالكين أي معذَّبين إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسول وإنزال الكتب"[٣].

**القول الخامس**: اختار ابن جزي أن المعنى: لم يكونوا لينفصلوا من الدنيا حتى بعث الله لهم سيدنا محمداً ﷺ فقامت عليهم الحجة، لأنهم لو انفصلت الدنيا دون بعثه لقالوا: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا، فلما بعثه الله لم يبق عذر ولا حجة[٤].

**القول السادس**: قال أبو حيان: "والظاهر أن المعنى: لم يكونوا منفكين، أي: منفصلاً بعضهم عن بعض، بل كان كل منهم مقراً الآخرَ على ما هو عليه، مما اختاره لنفسه هذا من اعتقاده في شريعته، وهذا من اعتقاده في أصنامه،

---

(١) تفسيره ١٦/٣٤٣.

(٢) الصَّلاَ: وسط الظهر، وقيل: هو ما انحدر من الوركين. انظر: اللسان ٤/٢٤٩١، مادة (صلا).

(٣) تفسيره ١٠/٢٦١.

(٤) تفسيره ٢/٥٩٦، وهو قريب من الثالث، وقد ذكر ابن جزي قول ابن عطية، ثم استظهر هذا.

والمعنى أنه اتصلت مودَّتهم واجتمعت كلمتهم إلى أن أتتهم البينة"[١]، وضـــعّفه الألوسي[٢].

والأظهر – والله أعلم – القول الأول، لوروده عن جمع من السلف، ولأن القائلين به من المفسرين أكثر، ويمكن أن يقال: إن القول الثالث، الذي اختاره ابن عطية وشيخ الإسلام داخل في هذا القول، غير معارض له.

(١) البحر المحيط ٨/٤٩٤.

(٢) تفسيره ٣٠/٢٠٣.

# سورة البينة: الآية ٤

قال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾[1].

اختار شيخ الإسلام أن المراد بالبينة في الآية ما في كتب أهل الكتاب من بيان نبوته ﷺ.

قال – رحمه الله –: "قال أبو الفرج: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني من لم يؤمن ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ وفيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه محمد، والمعنى لم يزالوا مجتمعين على الإيمان به حتى بعث؛ قاله الأكثرون.

والثاني: القرآن؛ قاله أبو العالية.

والثالث: ما في كتبهم من بيان نبوته؛ ذكره الماوردي.

قلت: هذا هو الذي قطع به أكثر المفسرين ولم يذكر الثعلبي والبغوي وغيرهما سواه، وأبو العالية إنما قال: الكتاب لم يقل: القرآن. هكذا رواه ابن أبي حاتم بالإسناد المعروف عن الربيع بن أنس: ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ قال: قال أبو العالية: الكتاب. ومراد أبي العالية جنس الكتاب، فيتناول الكتاب الأول كما قال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ في موضعين

---

(١) سورة البينة: الآية ٤.

من القرآن[١]، وقال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾، ثم قال: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ﴾[٢]، وهذا التفسير معروف عن أبي العالية ورواه عن أبي بن كعب، ورواه ابن أبي حاتم وغيره عن الربيع عن أبي العالية عن أبي بن كعب أنه كان يقرؤها: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ وأن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب عند الاختلاف، ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ قال: أنزل الكتاب عند الاختلاف، ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ ﴾ يعني بني إسرائيل، أوتوا الكتاب والعلم ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ يقول: بغياً على الدنيا وطلب ملكها وزخرفها وزينتها، أيهم يكون له الملك والمهابة في الناس، فبغى بعضهم على بعض، وضرب بعضهم رقاب بعض ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ﴾ يقول: فهداهم الله عند الاختلاف أنهم أقاموا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف أقاموا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف واعتزلوا الاختلاف، فكانوا شهداء على الناس يوم القيامة، كانوا شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم

---

(١) سورة هود: الآية ١١٠، وسورة فصلت: الآية ٤٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٣.

صالح وقوم شعيب وآل فرعون أن رسلهم قد بلغتهم وأنهم كذبوا رسلهم"[١].

**الدراسة:**

البينة: الحجة الظاهرة التي بها يتميز الحق من الباطل، فهي من البيان أو البينونة؛ لأنها تبين الحق من الباطل[٢].

واختلف المفسرون في المراد بالبينة في الآية على أقوال خمسة:

**القول الأول**: أن المراد بالبينة محمد ﷺ والمعنى: لم يزالوا مجتمعين على الإيمان به حتى بُعث، فلما بُعث تفرقوا فيه، فكذب به بعضهم، وآمن بعضهم؛ قاله أكثر المفسرين[٣]، واختاره ابن جرير[٤]، وبه قال عكرمة[٥]، واختاره الزمخشري وقال: "يعني أنهم كانوا يعدِّون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرقهم عن الحق، ولا أقرَّهم على الكفر إلا مجيء الرسول ﷺ، ونظيره في الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه: لست بمنفك مما أنا فيه حتى يرزقني الله الغنى، فيرزقه الله الغنى فيزداد فسقاً، فيقول واعظُه: لم تكن منفكاً عن الفسق حتى توسر، وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار،

---

(١) مجموع الفتاوى ٥١٣/١٦.

(٢) انظر: تفسير الرازي ٤٠/٣٢، والألوسي ٢٠١/٣٢.

(٣) نسبه للأكثرين ابن الجوزي ٢٨٩/٨، ونسبه الشوكاني ٦٨٤/٥ للجمهور.

(٤) تفسيره ٦٥٦/١٢.

(٥) نسبه إليه ابن الجوزي ٢٨٩/٨.

يذكِّره ما كان يقوله توبيخاً وإلزاماً"[١].

واختاره أيضاً الواحدي[٢]، والشوكاني[٣]، والألوسي[٤].

**القول الثاني**: أنها القرآن؛ قاله أبو العالية[٥].

وقال القرطبي: "أي أتتهم البينة الواضحة، والمعنيُّ به محمد ﷺ؛ أي: القرآن موافقاً لما في أيديهم من الكتاب بنعته وصفته..."[٦].

ونظيره قوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾[٧].

ولعلَّ هذين القولين الأول والثاني متلازمان، فإن القرآن دليل صدق الرسول ﷺ.

**القول الثالث**: أنها ما في كتب أهل الكتاب من بيان نبوته ﷺ.

قال الزجاج: "أي: ما تفرقوا في ملكهم وكفرهم بالنبي عليه السلام إلا من بعد أن تبيَّنوا أنه الذي وُعدوا به في التوراة والإنجيل"[٨].

---

(١) تفسيره ٤/٢٢٦.

(٢) الوسيط ٤/٥٣٩.

(٣) فتح القدير ٥/٦٨٤.

(٤) تفسيره ٣٠/٢٠٢.

(٥) نسبه إليه ابن الجوزي ٨/٢٨٩.

(٦) تفسيره ٢٠/٩٧.

(٧) سورة طه: الآية ١٣٣.

(٨) معاني القرآن وإعرابه ٥/٣٥٠.

واختاره الثعلبي[١]، وشيخ الإسلام كما تقدم، وابن كثير[٢]، والبغوي، وقال: "أي البيان في كتبهم أنه نبي مرسل، قال المفسرون: لم يزل أهل الكتاب مجتمعين في تصديق محمد ﷺ حتى بعثه الله، فلما بُعث تفرقوا في أمره واختلفوا، فآمن به بعضهم وكفر آخرون"[٣].

**القول الرابع**: أن المراد بالبينة مطلق الرسل، أي: حتى تأتيهم رسل من ملائكة الله تتلو عليهم صحفاً مطهرة، وهو كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[٤]، وكقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾[٥]"[٦]، وفيه بُعد.

**القول الخامس**: أن المراد بالبينة مجيء عيسى عليه السلام فقد وعدهم به أنبياؤهم، فلما جاءهم كذبوه فلا يُطمع في صدقهم فيما زعموا من انتظار البينة بعد عيسى، وهم قد كذبوا ببينته، فتبين أن الجحود والعناد صفة لازمة لهم، والمراد بالتفرق: تفرق بني إسرائيل ما بين مكذِّب لعيسى ومؤمن به، وما آمن به إلا نفر قليل من اليهود؛ وهذا قول ابن عاشور، وضعَّفَ الأقوال الأخرى بقوله: "وقد أطبقت كلمات المفسرين على أن معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ

---

(١) تفسيره ٢٦١/١٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٥٧٤/٤.

(٣) تفسيره ٥١٣/٤.

(٤) سورة النساء: الآية ١٥٣.

(٥) سورة المدثر: الآية ٥٢.

(٦) تفسير الرازي ٤٠/٣٢.

﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ أنهم ما تفرقوا عن اتباع الإسلام، أي ما تباعدوا عنه إلا من بعد ما جاء محمد ﷺ، وهذا تأويل للفظ التفرق، وهو صرف عن ظاهره بعيد، فأشكل وجه تخصيص أهل الكتاب بالذكر مع أن التباعد عن الإسلام حاصل منهم ومن المشركين، وجعلوا المراد بالبينة الثانية عين الأولى، وهي بينة محمد ﷺ"[1].

والأظهر – والله أعلم – القول الأول؛ لأنه أقل تكلفاً من الأقوال الأخرى، ولأنه قول جمهور المفسرين.

---

(١) تفسيره ٣٠/٤٧٩.

# سورة التكاثر: الآيتان ٥ - ٦

قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾[١].

رجح شيخ الإسلام أن جواب ﴿ لَوْ ﴾ محذوف تقديره لكان الأمر فوق الوصف، ولعلمتم أمراً عظيماً ولألهاكم عمَّا ألهاكم.

قال – رحمه الله –: "﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ فهذا إشارة إلى علمهم في الحال والخبر محذوف، أي: لكان الأمر فوق الوصف ولعلمتم أمراً عظيماً ولألهاكم عما ألهاكم؛ فإن الالتهاء بالتكاثر إنما وقع من الغفلة وعدم اليقين، كما قال: ﴿ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾[٢]، ومثل قول النبي ﷺ: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً"[٣]، وحذف جواب (لو) كثير في القرآن تعظيماً له وتفخيماً فإنه أعظم من أن يوصف أو يتصور بسماع لفظ؛ إذ المخبر ليس كالمعاين، ولهذا أتبع ذلك بالقسم على الرؤية التي هي عين اليقين، التي هي فوق الخبر الذي هو علم اليقين فقال: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾[٤]، وهذا الكلام جواب قسم محذوف مستقبل، مع كون جواب (لو) محذوفاً كما تقدم في أحد

---

(١) سورة التكاثر: الآيتان ٥ – ٦.

(٢) سورة الأعراف: الآيتان ١٣٦، ١٤٦.

(٣) أخرجه البخاري ٣٨٧/١١ ح٦٤٨٥، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: "لو تعلمون ما أعلم..."، ومسلم ١٨٣٢/٤ ح٢٣٥٩، كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ..، عن أنس رضي الله عنه.

(٤) سورة التكاثر: الآيتان ٦ – ٧.

القولين.

وفي الآخر هو متعلق بـ(لو)؛ لكن يقال: جواب (لو) إنما يكون ماضيا فيقال: لرأيتم الجحيم، ولو كان ماضيا فليس مما يؤكد بل يقال: لو يجيء لأجيء، وجواب هذا أنه جواب قسم محذوف سد مسد جواب (لو)، كقوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[1]، وله نظائر في القرآن وكلام العرب؛ فإن الكلام إذا اشتمل على قسم وشرط وكل منهما يقتضي جوابه أجيب الأول منهما وهو هنا القسم وهو المقصود، وعلى هذا القول يكون المعنى: والله لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم بقلوبكم.

والأول هو المشهور، ومن المفسرين من لم يذكر سواه، وهو الذي أثروه عن متقدميهم، ويدل على صحته وأنه الحق أن قوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾، ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ﴾[2] معطوف على ما قبله فيكون داخلاً في حيزه، فلو كان الأول معلقاً بالشرط لكان المعطوف عليه كذلك، وهو باطل؛ لأن رؤيتها عين اليقين، والمسألة عن النعيم ليس معلقاً بأن يعلموها في الدنيا علم اليقين، وأيضاً فتفسير الرؤية المطلقة برؤية القلب ليس هو المعروف من كلام العرب، وأيضاً فيكون الشرط هو الجواب فإن المعنى حينئذ: لو علمتم علم اليقين لرأيتم بقلوبكم، وذلك هو العلم، فالمعنى: لو علمتم لعلمتم، وهذا لا يفيد، ولو أريد بمشاهدة القلب قدر زائد على مجرد العلم فهذا معلوم أن من علم الشيء أمكنه أن يجعل مشاهداً له بقلبه، وأيضاً فهذا المعنى لو كان مفيداً لم يكن مما يستحق القسم

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢١.

(٢) سورة التكاثر: الآية ٨.

عليه فإنه ليس بطائل.

وأيضاً فقوله: ﴿ لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ﴾ لم يذكر المعلوم حتى يستلزم العلم به العلم بالجحيم، فإن أريد معلوم خاص فلا دليل في الشرط عليه حتى يصح الارتباط، وإن أريد المعلوم العام وهو ما بعد الموت فذاك يستلزم العلم بالجحيم وغيرها وهذا فيه نظر، فقد يسأل ويقال قوله: ﴿ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾[1] لم يذكر فيه المعلوم بل أطلق، ومعلوم أن كل أحد سوف يعلم شيئاً لم يكن علمه، وجوابه: أن سياق الكلام يقتضي الوعيد والتهديد حيث افتتحه بقوله: ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾[2].

وأيضاً فمثل هذا الكلام قد صار في العرف يستعمل في الوعيد غالبا أو في الوعد، وإذا كان العلم مقيدا بالسياق اللفظي وبالوضع العرفي. فقوله: ﴿ لَوۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ هو ذاك العلم أخبر بوقوعه مستقبلاً ثم علق بوقوعه حاضرا، وقيد المعلق به بعلم اليقين، فإنهم قد يعلمون ما بعد الموت لكن ليس علماً هو يقين"[3].

## الدراسة:

اختلف المفسرون في جواب ﴿ لَوۡ ﴾ في الآية على قولين:

**القول الأول**: ذهب عامة المفسرين إلى أن جواب ﴿ لَوۡ ﴾ في الآية

---

(١) سورة التكاثر: الآيتان ٣ – ٤.

(٢) سورة التكاثر: الآية ١.

(٣) مجموع الفتاوى ٥١٧/١٦ - ٥٢٠ باختصار.

محذوف، والتقدير: لو تعلمون الأمر علماً يقيناً لشغلكم عن التكاثر والتفاخر؛ قاله مقاتل[١]، أو لعلمتم أمراً عظيماً[٢].

قال الزجاج: "المعنى: لو علمتم الشيء حقَّ علمه، وصرفتم التفهُّم إليه لارتدعتم"[٣].

وقال النحاس: "والتقدير: لو تعلمون أنكم ترون الجحيم لما تكاثرتم في الدنيا بالأموال، وغيرها. وقال الكسائي: جواب ﴿لَوْ﴾ في أول السورة، أي: لو تعلمون عليم اليقين ما ألهاكم التكاثر"[٤].

واختار هذا القول الواحدي[٥]، والسمعاني[٦]، والبغوي[٧]، والزمخشري[٨]، وابن عطية[٩]، وابن الجوزي[١٠]، وشيخ الإسلام كما تقدم، وابن جزي[١١]، وأبو حيان وقال: "الدلالة ما قبله عليه وهو ﴿أَلْهَىٰكُمُ

---

(١) انظر: تفسير الثعلبي ٢٧٧/١٠، وابن كثير ٥٨٣٣/٤.

(٢) انظر: زاد المسير ٣٠١/٨.

(٣) معاني القرآن ٣٥٧/٥.

(٤) إعراب القرآن ٢٨٤/٥.

(٥) تفسيره الوسيط ٥٤٩/٤.

(٦) تفسيره ٢٧٦/٦.

(٧) تفسيره ٥٢١/٤.

(٨) الكشاف ٢٣١/٤.

(٩) تفسيره ٣٥٩/١٦.

(١٠) زاد المسير ٣٠١/٨.

(١١) تفسيره ٦٠٦/٢.

﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾"[١]، والسَّمين[٢]، وابن كثير[٣]، وغيرهم.

وقال الرازي: "اتفقوا على أن جواب ﴿لَوۡ﴾ محذوف، وأنه ليس قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾ جوابَ ﴿لَوۡ﴾، ويدل عليه وجهان:

أحدهما: أن ما كان جواب ﴿لَوۡ﴾ فنفيه إثبات، وإثباته نفي، فلو كان قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾ جواباً لـ﴿لَوۡ﴾ لوجب ألا تحصل الرؤية، وذلك باطل؛ فإن هذه الرؤية واقعة قطعاً...

والثاني: أن قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ إخبار عن أمر سيقع قطعاً، فعطفه على ما لا يوجد ولا يقع قبيح في النظم، ثم ذكر أن من وجوه حذف جواب ﴿لَوۡ﴾ ليذهب الوهم كلَّ مذهب فيكون التهويلُ أعظمَ، وكأنه قال: لو علمتم علم اليقين لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه، ولكنكم ضلال وجهلة، وأما قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾ فاللام يدل على أنه جواب لقسم محذوف، والقسم لتوكيد الوعيد، وأن ما أوعدوا به مما لا مدخل فيه للريب، وكرره معطوفاً ثمَّ تغليظاً للتهديد، وزيادة في التهويل"[٤].

**القول الثاني**: أن جواب ﴿لَوۡ﴾ قوله تعالى – في الآية التي بعدها –: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾.

قال الثعلبي: "يصلح أن يكون في معنى المضي جواباً لـ﴿لَوۡ﴾، تقديره:

---

(١) البحر المحيط ٥٠٦/٨.

(٢) الدر المصون ٩٨/١١.

(٣) تفسيره ٥٨٣/٤.

(٤) تفسيره ٧٥/٣٢، وانظر: الألوسي ٢٢٥/٣٠.

لو تعلمون علم اليقين لرأيتم الجحيم بقلوبكم، ثم رأيتموه بالعين اليقين"[١].

وهذا القول ضعيف، و لم أرَ من اختاره.

قال ابن عاشور: "وليس قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ جوابَ ﴿لَوْ﴾ على معنى: لو تعلمون علم اليقين لكنتم كما ترون الجحيم، أي: لترونَّها بقلوبكم؛ لأن نظم الكلام صيغة قسم بدليل قرْنه بنون التوكيد، فليست هذه اللامُ لامَ جواب ﴿لَوْ﴾ لأن جواب ﴿لَوْ﴾ ممتنع الوقوع، فلا تقترن به نون التوكيد"[٢].

وتقدم اعتراض الرازي وشيخ الإسلام على هذا القول.

والراجح – والله أعلم – ما ذهب إليه عامة المفسرين من أن جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ لا يصلح أن يكون جواباً لها لا من جهة اللفظ، ولا من جهة المعنى.

---

(١) تفسيره ٢٧٧/١٠، وانظر: الألوسي ٢٢٥/٣٠.

(٢) تفسيره ٥٢٢/٣٠.

## سورة الماعون: الآيتان ٤ - ٥

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن المراد بالسهو عن الصلاة في هذه الآية إضاعة حقوقها وواجباتها، وليس مجردَ تركها.

قال – رحمه الله –: "المراد بهاتين الآيتين، هذه الآية وآية مريم ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾[٢] من أضاع الواجب لا مجرد تركها، هكذا فسرها الصحابة والتابعون وهو ظاهر الكلام فإنه قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ فأثبت لهم صلاة وجعلهم ساهين عنها، فعلم أنهم كانوا يصلون مع السهو عنها، وقد قال طائفة من السلف: بل هو السهو عما يجب فيها مثل ترك الطمأنينة.

وكلا المعنيين حق، والآية تتناول هذا وهذا، كما في صحيح مسلم عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: "تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقرها أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً"[٣].

---

(١) سورة الماعون: الآيتان ٤ – ٥.

(٢) سورة مريم: الآية ٥٩.

(٣) مجموع الفتاوى ١٥/٢٣٤.

وقال – رحمه الله – عند هذه الآية: "فقد ذمَّ الله تعالى في كتابه الذين يصلون إذا سهوا عن الصلاة، وذلك على وجهين: أحدهما: أن يؤخرها عن وقتها. الثاني: أن لا يكمل واجباتها: من الطهارة، والطمأنينة، والخشوع، وغير ذلك. كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: "تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق – ثلاث مرار –، يترقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقر أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً"[(١)]، فجعل النبي ﷺ صلاة المنافقين التأخير، وقلة ذكر اسم الله سبحانه، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[(٢)]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[(٣)]"[(٤)].

وقال – رحمه الله – أيضاً: "ذمهم مع أنهم يصلون؛ لأنهم سهوا عن حقوقها الواجبة من فعلها في الوقت وإتمام أفعالها المفروضة..."[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم ٤٣٤/١ ح٦٢٢، كتاب المساجد، باب استحباب التكبير بالعصر، عن أنس ﷺ.

(٢) سورة النساء: الآية ١٤٢.

(٣) سورة النساء: الآيتان ١٤٥ – ١٤٦.

(٤) مجموع الفتاوى ٢٤/٢٢، وانظر: ص٣٩، ٥٤.

(٥) مجموع الفتاوى ٧ /٦١٥، وانظر: ٤٢٨/٣، ٢١٧/٣٢، ومنهاج السنة ٢١٠/٥، ١٠٦/٣٥، وشرح العمدة ص٥٣، والفتاوى الكبرى ٨/٢.

وقال – رحمه الله –: "وهم الذين يؤخرونها حتى يخرج الوقت"[١].

**الدراسة:**

اختلف المفسرون في المراد بالسهو عن الصلاة المذكور في هذه الآية على قولين:

**القول الأول**: أن المراد بالسهو عن الصلاة في الآية إضاعة حقوقها وواجباتها.

وقد رُوي عن سعد بن أبي وقاص، وابن عباس ﷺ، ومصعب بن سعد، وابن أبْزى، ومسروق، وأبي الضُّحى[٢] أنهم قالوا في السهو عن الصلاة في هذه الآية هو تأخيرها عن وقتها[٣].

وعن مجاهد في قوله: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾"لاهون". وعنه: "يتهاونون". وعن قتادة: "غافلون"، وعن ابن زيد: "يصلون وليست الصلاة من شأنهم"[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى ٤٢٨/٣، ٥٧٢/٢٢.

(٢) هو مسلم بن صُبَيْح القرشي الكوفي، مولى آل سعيد بن العاص، كان من أئمة الفقه والتفسير، توفي نحو سنة ١٠٠هـ في خلافة عمر بن عبد العزيز. انظر: سير أعلام النبلاء ٧١/٥، وتهذيب التهذيب ١٣٢/١٠.

(٣) أخرجه عنهم ابن جرير ٧٠٦/١٢ – ٧٠٧، وأخرجه عن مسروق أيضاً ابن أبي حاتم كما في الدر ٦٨٣/٦.

(٤) أخرجه عنهم ابن جرير ٧٠٧/١٢ – ٧٠٨، وعن مجاهد أيضاً وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر ٦٨٣/٦، وعن زيد بن أسلم أيضاً ابن أبي حاتم كما في الدر ٦٨٣/٦.

وعن قتادة: "ساهٍ عنها، لا يبالي صلى أم لم يصل"(١). وعن أبي العالية: "هو الذي يصلي، ويقول: هكذا، يعني: يلتفت عن يمينه ويساره"(٢). وعن عطاء بن يسار(٣) قال: "الحمد لله الذي قال ﴿هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ و لم يقل: في صلاتهم"(٤). أي: إن السهو في الصلاة لا يسلم منه أحد.

واختاره النحاس وقوَّاه بحديث سعد(٥)، والزمخشري(٦)، وشيخ الإسلام كما تقدم، و ابن القيم، وقال: "وليس السهو عنها تركها، وإلا لم يكونوا مصلين، وإنما هو السهو عن واجبها، إما عن الوقت كما قال ابن مسعود وغيره، وإما عن الحضور والخشوع. والصواب: أنه يعمُّ النوعين، فإنه سبحانه أثبت لهم الصلاة ووصفهم بالسهو عنها، فهو السهو عن وقتها الواجب، أو عن إخلاصها وحضورها الواجب، ولذلك وَصَفهم بالرياء، ولو كان السهوُ سهوَ ترك لما كان هناك رياء"(٧).

واختاره السعدي أيضاً(٨).

---

(١) أخرجه عبدالرزاق ٤٦٣/٣ [ ط: محمود ]، وابن جرير ٧٠٧/١٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٦٨٣/٦.

(٣) هو الإمام الفقيه الواعظ المذكر الثبت الحجة كبير القدر، عطاء بن يسار الهلالي المدني، مولى ميمونة، حدث عن عائشة وأبي هريرة، توفي سنة ١٠٣هـ، وقيل غير ذلك. انظر: سير أعلام النبلاء ٤٤٨/٤، وتهذيب التهذيب ٢١٧/٧.

(٤) أخرجه ابن جرير ٧٠٨/١٢، بدون قوله: "و لم يقل"، وذكره في الدر ٦٨٣/٦ بهذا اللفظ.

(٥) انظر: إعراب القرآن ٢٩٦/٥.

(٦) تفسيره ٢٣٦/٤.

(٧) المدارج ٥٦٥/١.

(٨) تفسيره ص٩٣٥.

**القول الثاني**: أن المراد بالسهو عنها تركها؛ وروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – وعن مجاهد: "الترك لها"(١).

قال ابن عباس – رضي الله عنهما –: "هم المنافقون كانوا يراؤون الناس بصلاتهم إذا حضروا، ويتركونها إذا غابوا، ويمنعونهم العارية بغضاً لهم، وهو الماعون"(٢).

وقال الفراء: "يعني المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ لاهون، كذلك فسّرها ابن عباس وكذلك رأيتها في قراءة عبدالله"(٣)، واختاره الزجاج(٤).

وقال الواحدي: "نزلت في المنافقين الذين لا يرجون لها ثواباً إن صلوا، ولا يخافون عليها عقاباً إن تركوا، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها، فإذا كانوا مع المؤمنين صلوا رياءً، وإذا لم يكونوا معهم لم يصلوا"(٥).

واختاره أبو حيان، وقال: "ويدل على أنها في المنافقين قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ﴾"(٦).

---

(١) أخرجه عنهما ابن جرير ٧٠٧/١٢، وعن مجاهد الفريابي وابن المنذر كما في الدر ٦٨٣/٦.

(٢) أخرجه ابن جرير ٧٠٧/١٢ من طريقين، وعزاه في الدر ٦٨٢/٦ لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب.

(٣) معاني القرآن ٢٩٥/٣، وانظر: تفسير القرطبي ١٤٤/٢٠.

(٤) معاني القرآن ٣٦٧/٥.

(٥) تفسيره الوسيط ٥٥٩/٤.

(٦) تفسيره ٥١٨/٨.

واختاره أيضاً ابن عاشور، واستدل له بالسياق، وقال: "موقع الفاء صريح في اتصال ما بعدها بما قبلها على معنى التفريع والترتب والتسبب، ثم بيَّن أن المرادبالمصلين عين المراد بالذي يكذب بالدين..."(١).

وذهب ابن جرير وابن كثير إلى أن السهو المذكور في الآية يشمل جميع ما ذكر فيه، وما يدخل تحته، وأيد ذلك ابنُ جرير بحديثين مرفوعين إلى النبي ﷺ، حيث قال: "وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب بقوله ﴿سَاهُونَ﴾: لاهون يتغافلون عنها، وفي اللهو عنها والتشاغل بغيرها تضييعها أحياناً، وتضييع وقتها أخرى، وإذا كان ذلك كذلك، صح بذلك قول من قال: عُني بذلك ترك وقتها، وقول من قال: عنى به تركها؛ لما ذكرت من أن في السهو عنها المعاني التي ذكرت، وقد روي عن رسول الله بذلك خبران يؤيدان صحة ما قلنا في ذلك:

أحدهما: حديث سعد بن أبي وقاص، قال: سألت النبي عن ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ قال: "هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها".

والآخر منهما: حديث أبي برزة الأسلمي، قال: قال رسول الله - لما نزلت هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ -: "الله أكبر ! هذه خير لكم من أن لو أعطي كل رجل منكم مثل جميع الدنيا، هو الذي إن صلى لم يرج خير صلاته وإن تركها لم يخف ربه".

وكلا المعنيين اللذين ذكرت في الخبرين اللذين روينا عن رسول الله محتمل

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٦٦.

معنى السهو في الصلاة"[١].

و قال ابن كثير: "الذين هم من أهل الصلاة، وقد التزموا بها، ثم هم عنها ساهون إما عن فعلها بالكلية؛ كما قاله بن عباس، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعاً فيخرجها عن وقتها بالكلية؛ كما قاله مسروق وأبو الضحى، وقال عطاء بن دينار[٢]: الحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ و لم يقل: في صلاتهم ساهون. وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائماً أو غالباً، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل ذلك كله، ولكل من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية، ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم له نصيبه منها، وكمل له النفاق العملي، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: "تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلا"، فهذا أخر صلاة العصر التي هي الوسطى كما ثبت به النص إلى آخر وقتها وهو وقت كراهة ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب لم يطمئن ولا خشع فيها أيضاً، ولهذا قال: "لا يذكر الله فيها إلا قليلاً"، ولعله إنما حمله على القيام إليها مراءاة الناس؛ لا ابتغاء وجه الله، فهو كما إذا لم يصلِّ بالكلية"[٣].

---

(١) تفسيره ٧٠٨/١٢، باختصار.

(٢) هو عطاء بن دينار الهذلي، مولاهم المصري، من رجال الحديث، له كتاب في التفسير يرويه عن سعيد بن جبير، توفي بمصر سنة ١٢٦هـ. انظر: تهذيب التهذيب ١٩٨/٧، والأعلام ٢٣٥/٤.

(٣) تفسيره ٥٩٣/٤.

وقد وافقه الألوسي على ذلك، وقال: "وللسلف أقوال كثيرة في المراد بهذا السهو، ولعلّ كلَّ ذلك من باب التمثيل، ثم ذكر أقوالهم"[١].

والراجح – والله أعلم – ما ذهب إليه ابن جرير ومن وافقه من أن المراد بالسهو عن الصلاة يشمل تركها، وتضييع حقوقها، وذلك لورود ذلك كله عن السلف؛ ولأنه يمكن حمل الآية على جميع ما ورد فيها، لكنْ لا يدخل فيها تركها بالكلية؛ لأن من تركها مطلقاً لا يسمى مصلياً.

(١) تفسيره ٣٠/٢٤٢.

# سورة الكافرون: الآيات ١ - ٦

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[1].

اختار شيخ الإسلام أن وجه تكرير البراءة من الجانبين في السورة كما يلي: أن قوله تعالى: ﴿ لَآ أَعْبُدُ ﴾ يتناول نفي عبادته لمعبودهم في الزمان الحاضر والمستقبل، وقوله: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يتناول ما تعبدونه في الحاضر والمستقبل.

وأما قوله: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ فهو أعمُّ من النفي في الجملة الأولى، فقوله: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ ﴾ يتناول الحال والاستقبال أيضاً، لكن فيه زيادة معنى، وهو نفي القبول والإمكان، والمعنى: لا يمكنني ولا يسوغ لي ولا ينبغي لي أن أعبد ما عبدتموه قط، ولو كنتم عبدتموه في الماضي فقط، وقوله: ﴿مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ يتناول ما عبدوه في الزمن الماضي.

وأما قوله عن الكفار: ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ فهو خطاب لجنس الكفار ما داموا كفاراً فإنهم لا يعبدون الله وإنما يعبدون الشيطان، وأتى بالجملة الاسمية ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ ﴾ دون الفعلية (ولا تعبدون) ليُبيِّن أن نفوسهم الخبيثة الكافرة بريئة من عبادة إله محمد ﷺ لا يمكن أن تعبده ما دامت كافرة. وقوله ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ الثانية فيها البراءة القاطعة

---

(١) سورة الكافرون: الآيات ١ – ٦.

منهم، وأنهم بريؤون من عبادة ما أعبده في جميع الأحوال حتى مع كمال براءته منهم وبعده عن معبودهم وكمال قربه من الله تعالى، ولا حاجة لتغيير اللفظ هنا.

وللشيخ كلام طويل جدا حول هذا الموضوع،حيث ذكر القولين الذين ذكرهما ابن الجوزي: ١ - أنه لتأكيد الأمر وحسم أطماعهم.

٢ - أنه لنفي الحال والاستقبال والمراد بذلك قوم بأعيانهم، وضعَّفها، وقال عن السورة: "ليس فيها لفظ تكرار إلا قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، وهو مع الفصل بينهما بجملة".

وبيَّن أنه ليس في القرآن تكرار للفظ بعينه عَقِب الأول، وأنه لا يذكر فيه لفظ زائد إلا لمعنى زائد، وإن كان في ضمن ذلك التوكيد، وقال عن **القول الثاني**: "هذا أجود من الذي قبله من جهة بيانهم لمعنى زائد على التكرير، لكن فيه نقص من جهة أخرى، وهو جَعْلهم هذا خطاباً لمعينين، فنقضوا معنى السورة من هذا الوجه، وهذا غلط، فإن قوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ خطاب لكل كافر، وكان يقرأ بها في المدينة بعد أولئك المُعيَّنين، ويأمر بها ويقول هي براءة من الشرك، فلو كانت خطاباً لأولئك المعينين أو لمن عُلم منهم أنه يموت كافراً، لم يخاطب بها من لم يعلم ذلك منه.

وأيضاً فأولئك الْمُعَيَّنُون إن صحَّ أنه إنما خاطبهم فلم يكن إذْ ذاك عَلِمَ أنهم يموتون على الكفر، والقولُ بأنه إنما خاطب بها مُعَيَّنين قولٌ لم يقله مَنْ يُعْتَمَدُ عليه، ولكن قد قال مقاتل بن سليمان: إنها نزلت في أبي جهل والمستهزئين و لم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد. ونَقْلُ مقاتل وحده مما لا يعتمد عليه باتفاق

أهل الحديث، كنقل الكلبي، ولهذا كان المصنفون في التفسير من أهل النقل لا يذكرون عن واحد منهما شيئاً كمحمد بن جرير وعبد الرحمن بن أبي حاتم وأبي بكر بن المنذر فضلا عن مثل أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه".

ثم قال: "وقد ذكر المهدوي هذا القول، وذكر معه قولين آخرين، فقال: الألف واللام ترجع إلى معهود وإن كانت للجنس حيث كانت صفة؛ لأن لامها مخاطبة لمن سبق في علم الله أن يموت كافراً، فهي من الخصوص الذي جاء بلفظ العموم، وتكرير ما كرر فيها ليس بتكرير في المعنى ولا في اللفظ سوى موضع واحد منها؛ فإنه تكرير في اللفظ دون المعنى، بل معنى: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ في الحال ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ في الحال ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴾ في الاستقبال ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ في الاستقبال. قال: فقد اختلف اللفظ والمعنى في قوله: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ ﴾ وما بعده ﴿ وَلَآ أَنَا۠ ﴾، وتكرر ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ في اللفظ دون المعنى.

قال: وقيل إن معنى الأول: ولا أنتم عابدون ما عبدت، ومعنى الثاني: ولا أنتم عابدون ما أعبد. فعدل عن لفظ (عبدت) للإشعار بأن ما عبد في الماضي هو الذي يعبد في المستقبل قد يقع أحدهما موقع الآخر، وأكثر ما يأتي ذلك في إخبار الله تعالى، ويجوز أن تكون ﴿ مَآ ﴾ والفعل مصدراً، وقيل: إن معنى الآيات وتقديرها: قل يا أيها الكافرون لا أعبد الأصنام الذي تعبدون، ولا أنتم عابدون الذي أعبده لإشراككم به واتخاذكم معه الأصنام؛ فإن زعمتم أنكم تعبدونه فأنتم كاذبون لأنكم تعبدونه مشركين به، فأنا لا أعبد ما عبدتم، أي:

مثل عبادتكم، فهو في الثاني مصدر. وكذلك ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ هو في الثاني مصدر أيضاً معناه: ولا أنتم عابدون مثل عبادتي التي هي توحيد.

قلت: القول الثالث هو في معنى الثاني لكن جعل قوله: ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ معنيين؛ أحدهما: بمعنى (ما عبدت)، والآخر: بمعنى (ما أعبد) ليطابق قوله لهم: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾، ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴾؛ فلما تبرأ من أن يعبد في الحال والاستقبال ما يعبدونه في الماضي والحال، كذلك برأهم من عبادة ما يعبد في الحال والاستقبال، لكن العبارة عنهم وقعت بلفظ الماضي، قال هؤلاء: وإنما لم يقل في حقه: (ما عبدت) للإشعار بأن ما أعبده في الماضي هو الذي أعبده في المستقبل.

قلت: أصحاب هذا القول أرادوا المطابقة كما تقدم. لكن إذا أريد بقوله: ﴿ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴾ [ ما أريد ] بقوله: ﴿ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ في أحد الموضعين الماضي كان التقدير على ما ذكروه: لا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم في الماضي. فيكون قد نفى عن نفسه في المستقبل عبادة ما عبدوه في الماضي دون ما يعبدونه في المستقبل، وكذلك إذا قيل: ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ أي في الماضي فسواء أريد بما يعبدون الحال أو الاستقبال إنما نفى عبادة ما عبدوه في الماضي، وهذا أنقص لمعنى الآية، وكيف يتبرأ في المستقبل من عبادة ما عبدوه في الماضي فقط؟ وكذلك هم؟.

وإن قيل: في المستقبل قد يعبدون الله بالانتقال عن الكفر فهو في الحال والاستقبال لا يعبد ما عبدوه؛ قيل: فعلى هذا لا يقال لهؤلاء ولا أنتم عابدون في المستقبل ما عبدت في الماضي، بل قد يعبدون في المستقبل إذا انتقلوا ربه الذي

عبده فيما مضى.

وإن قيل: قول هؤلاء هو القول الثاني لا أعبد في الحال ما تعبدون في الحال ولا أعبد في المستقبل ما تعبدون في المستقبل؛ قيل: ولفظ الآية ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ ليس لفظها (ولا أنا عابد ما تعبدون). فقوله: ﴿ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ إن أريد به الماضي الذي أراده هؤلاء فسد المعنى، وإن أريد به المستقبل بطل ما ذكروه من أن المضارع بمعنى الماضي في قوله: ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ فإن الماضي هنا بمعنى المضارع، فإذا كان المضارع مطابقاً له بقي مضارعاً لم ينقل إلى الماضي، فيكون عكس المقصود.

والقول الرابع الذي ذكره قول من جعل ﴿ مَآ ﴾ مصدرية في الجملة الثانية دون الأخرى، وهذا أيضاً ليس في الكلام ما يدل على الفرق بينهما، وإذا جُعلت في الجمل كلها مصدرية كان أقرب إلى الصواب مع أن هذا المعنى الذي تدل عليه ﴿ مَآ ﴾ المصدرية حاصل بقوله: ﴿ مَآ ﴾؛ فإنه لم يقل: (ولا أنتم عابدون من أعبد)، بل قال: ﴿ مَآ أَعْبُدُ ﴾، ولفظ (ما) يدل على الصفة بخلاف (من) فإنه يدل على العين كقوله: ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾[1] أي: الطيب، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾[2] أي: وبانيها، ونظيره قوله: ﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ ﴾[3]، ولم يقل: (من تعبدون من بعدي)، وهذا نظير [ قوله ]: ﴿ وَلَآ

(١) سورة النساء: الآية ٣.

(٢) سورة الشمس: الآية ٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٣٣.

﴿ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ سواء؛ فالمعنى: لا أعبد معبودكم ولا أنتم عابدون معبودي، فقوله: ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ يتناول شركهم؛ فإنه ليس بعبادة لله، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، فإذا أشركوا به لم يكونوا عابدين له وإن دعوه وصلوا له.

وأيضاً فما عبدوا ما يعبده، وهو الموصوف بأنه معبود له على جهة الاختصاص، بل هذا يتناول عبادته وحده، ويتناول الرب الذي أخبر به بما له من الأسماء والصفات، فمن كذب به في بعض ما أخبر به عنه فما عبد ما يعبده من كل وجه، وأيضاً فالشرائع قد تتنوع في العبادات فيكون المعبود واحداً وإن لم تكن العبادة مثل العبادة، وهؤلاء لا يتبرأ منهم، فكل من عبد الله مخلصاً له الدين فهو مسلم في كل وقت، ولكن عبادته لا تكون إلا بما شرعه؛ فلو قال: لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي فقد يظن أنه تدخل فيه البراءة من كل عبادة تخالف صورتها صورة عبادته، وإنما البراءة من المعبود وعبادته"، ثم ذكر رأيه فقال: "فقوله: ﴿ لَآ أَعْبُدُ ﴾ يتناول نفيَ عبادته لمعبودهم في الزمان الحاضر والزمان المستقبل، وقوله: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يتناول ما يعبدونه في الحاضر والمستقبل كلاهما مضارع، وقال في الجملة الثانية عن نفسه: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾، فلم يقل: (لا أعبد)، بل قال: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ ﴾، ولم يقل: (ما تعبدون)، بل قال: ﴿ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾، فاللفظ في فعله وفعلهم مغاير للفظ في الجملة الأولى، والنفي بهذه الجملة الثانية أعم من النفي بالأولى؛ فإنه قال: ﴿وَلَآ

﴿أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ بصيغة الماضي، فهو يتناول ما عبدوه في الزمن الماضي لأن المشركين يعبدون آلهة شتى، وليس معبودهم في كل وقت هو المعبود في الوقت الآخر، كما أن كل طائفة لها معبود سوى معبود الطائفة الأخرى، فقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ براءة من كل ما عبدوه في الأزمنة الماضية، كما تبرأ أولاً مما عبدوه في الحال والاستقبال، فتضمنت الجملتان البراءة من كل ما يعبده المشركون والكافرون في كل زمان ماضٍ وحاضر ومستقبل، وقوله أولاً: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ لا يتناول هذا كله، وقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ﴾ اسم فاعل قد عمل عمل الفعل ليس مضافاً فهو يتناول الحال والاستقبال أيضاً، لكنه جملة اسمية والنفي بما بعد الفعل فيه زيادة معنى كما تقول: (ما أفعل هذا، وما أنا بفاعله)، وقولك: (ما هو بفاعل هذا أبداً) أبلغ من قولك: (ما يفعله أبداً)؛ فإنه نفى عن الذات صدور هذا الفعل عنها بخلاف قولك: (ما يفعل هذا) فإنه لا ينفي إمكانه وجوازه منه، ولا يدل على أنه لا يصلح له ولا ينبغي له؛ بخلاف قوله: (ما هو فاعلاً وما هو بفاعل) كما في قوله: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾[1]، وقوله: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾[2]، وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا

(١) سورة النحل: الآية ٧١.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

تَعْمَلُونَ ﴾[١]، ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ ﴾[٢]، ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾[٣]، ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[٤].

ولا يقال: الجملة الاسمية ترك الثبوت ونفي ذلك لا يقتضي نفي العارض؛ فإن هذه الجملة في معنى الفعلية نفي لكونها عملت عمل الفعل، لكنها دلت على اتصاف الذات بهذا فنفت عن الذات أن يعرض لها هذا الفعل تنْزيها للذات ونفياً لقبولها لذلك، فالأول نفي الفعل في الماضي والمستقبل، والثاني نفي قبوله في الماضي مع الحاضر والمستقبل، فقوله: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ أي: نفسي لا تقبل ولا يصلح لها أن تعبد ما عبدتموه قط، ولو كنتم عبدتموه في الماضي فقط، فأي معبود عبدتموه في وقت فأنا لا أقبل أن أعبده في وقت من الأوقات، ففي هذا من عموم عبادتهم في الماضي والمستقبل، ومن قوة براءته وامتناعه وعدم قبوله لهذه العبادة في جميع الأزمان ما ليس في الجملة الأولى، تلك تضمنت نفي الفعل في الزمان غير الماضي، وهذه تضمنت نفي إمكانه وقبوله لما كان معبوداً لهم ولو في بعض الزمان الماضي فقط، والتقدير: ما عبدتموه ولو في بعض الأزمان الماضية فأنا لا يمكنني ولا يسوغ لي أن أعبده أبداً، ولكن لم ينف إلا ما يكون منه في الحاضر والمستقبل؛ لأن المقصود براءته هو في الحال والاستقبال.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٧٤.

(٢) سورة النمل: الآية ٨١.

(٣) سورة فاطر: الآية ٢٢.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٠٢.

وهذه السورة يؤمر بها كل مسلم وإن كان قد أشرك بالله قبل قراءتها".

ثم قال: "وأما قوله عن الكفار: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ فهو خطاب لجنس الكفار وإن أسلموا فيما بعد فهو خطاب لهم ما داموا كفاراً؛ فإذا أسلموا لم يتناولهم ذلك، فإنهم حينئذ مؤمنون لا كافرون، وإن كانوا منافقين فهم كافرون في الباطن فيتناولهم الخطاب... ولم يقل: (ولا تعبدون ما أعبد) بل ذكر الجملة الاسمية ليبين أن نفس نفوسكم الخبيثة الكافرة بريئة من عبادة إله محمد لا يمكن أن تعبده ما دامت كافرة؛ إذ لا تكون عابدته إلا بأن تعبده وحده بما أمر به على لسان محمد، ومن كان كافراً بمحمد لا يكون عمله عبادة لله قط، وتبرئتهم من عبادة الله جاءت بلفظ واحد بجملة اسمية تقتضي براءة ذواتهم من عبادة الله لم تقتصر على نفي الفعل..."ثم قال: "وذكر النفي عن الكفار في الجملتين لتقاربَ كلُّ جملة جملةً، فلما قال: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ فنفى الفعل قال: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، ثم لما زاد النفي بنفي جواز ذلك وبراءة النفس منه ذكر ما يدل على كراهته له وقبحه ونفى أن يعبد شيئاً مما عبدوه ولو في بعض الزمان قال: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ بل أنتم بريئون من عبادة ما أعبده، فليس لبراءتي وكمال براءتي وبعدي من معبودكم وكمال قربي إلى الله في عبادتي له وحده لا شريك له يكون لكم نصيب من هذه العبادة؛ بل أنتم أيضا في هذه الحال لا تعبدون ما أعبد، لا في الحال الأولى ولا في الثانية، ولو اقتصر في تبريهم من عبادة الله على الجملة الأولى لم يكن فيها تبرئة لهم في هذه الحال الثانية، فبرأهم من معبوده حين البراءة الأولى الخاصة وحين البراءة الثانية العامة القاطعة، وهم لم يختلف حالهم في الحالين بل هم فيهما

لا يعبدون ما يعبد، فلم يكن في تغيير العبارة فائدة وإنما غيرت العبارة في حقه وحق المؤمنين لتغيير المعنيين، والإنسان يقوى يقينه وإخلاصه وتوحيده وبراءته من الشرك وأهله وبغضه لما يعبدون ولعبادتهم فرفع درجته في ذلك، وهو في ذلك يقول للكفار: (لا تعبدون ما أعبد) في هذه الحال سواء كانوا هم قد زاد كفرهم وبغضهم له أو لم يزد، فالمقصود بالسورة أن المؤمن يتبرأ منهم ويخبرهم أنهم برآء منه، وتبريه منهم إنشاء ينشئه كما ينشئ المتكلم بالشهادتين، وهذا يزيد وينقص، ويقوى ويضعف، وأما هم فهو يخبر ببراءتهم منه في هذه الحال لا ينشئ شيئاً لم يكن فيهم، فخطاب المؤمن عن حالهم خبر عن حالهم والخبر مطابق للمخبر عنه فلم يتغير لفظ خبره عنهم إذا كانوا في كل وقت من أوقات عبادته لله لا يعبدون ما يعبد، فهذا اللفظ الخبري مطابق لحالهم في جميع الأوقات زادوا أو نقصوا، ولا يجوز للمؤمن أن ينشئ زيادة في كفرهم فإن ذلك محرم، بل هو مأمور بدعائهم إلى الإيمان، وليس له أن ينقصهم في خبره عما هم متصفون به"[1].

وقال ابن كثير: "وثمَّ قول رابع نصره أبو العباس ابن تيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ نفي الفعل لأنها جملة فعلية، ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية؛ لأن النفي بالجملة الاسمية آكد فكأنه نفي الفعل، وكونه قابلاً لذلك ومعناه نفي الوقوع ونفي

(١) مجموع الفتاوى ١٦/٥٣٤ – ٦٠١.

الإمكان الشرعي أيضاً، وهو قول حسن أيضاً، والله أعلم"[١].

**الدراسة:**

اختلف المفسرون في وجه تكرار البراءة من الجانبين في السورة على أقوال ثمانية:

**القول الأول**: أنه لتأكيد الأمر، وحسم أطماعهم فيه، فقوله: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ توكيد ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾، وقوله: ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ ثانياً: تأكيد لقوله: ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ أولاً[٢].

وأجازه ابن قتيبة، وقال: "ولا موضع أولى بالتكرار للتوكيد من السبب الذي أنزلت فيه ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ لأنهم أرادوه على أن يعبد ما يعبدون، ليعبدوا ما يعبد، وأبدأوا في ذلك وأعادوا، فأراد الله – عزَّ وجل– حسم أطماعهم وإكذاب ظنونهم، فأبدأ وأعاد في الجواب، وهو معنى قوله: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾[٣]، أي: تلين لهم في دينك، فيلينون في أديانهم"[٤].

---

(١) تفسيره ٥٠٨/٨ [ ط طيبة ].

(٢) تفسير أبي حيان ٥٢٢/٨.

(٣) سورة القلم: الآية ٩.

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٢٣٧، وانظر: تفسير الثعلبي ٣١٧/١٠.

وقال الثعلبي: "قال أكثر أهل المعاني: نزل القرآن بلسان العرب وعلى مجاري خطابهم، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز..."[١].

ورجح القول بأن التكرار هنا للتوكيد الشوكاني، وقال: "اعلم أن القرآن نزل بلسان العرب ومن مذاهبهم التي لا تجحد واستعمالاتهم التي لا تنكر أنهم إذا أرادوا التأكيد كرروا؛ كما أن من مذاهبهم أنهم إذا أرادوا الاختصار أوجزوا، هذا معلوم لكل من له علم بلغة العرب، وهذا مما لا يحتاج إلى إقامة البرهان عليه؛ لأنه إنما يستدل على مافيه خفاء ويبرهن على ماهو متنازع فيه، وأما ما كان من الوضوح والظهور والجلاء بحيث لا يشك فيه شاك ولا يرتاب فيه مرتاب فهو مستغن عن التطويل غير محتاج إلى تكثير القال والقيل، وقد وقع في القرآن من هذا ما يعلمه كل من يتلو القرآن، وربما يكثر في بعض السور كما في سورة الرحمن وسورة المرسلات، وفي أشعار العرب من هذا ما لا يتأتى عليه الحصر"[٢].

**القول الثاني**: أنه لنفي الحال والاستقبال، والمعنى: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ من الأوثان في حالي هذه، ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ في حالكم هذه، ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ ﴾ فيما استقبل، ﴿ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴾ فيما مضى، ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ ﴾ فيما تستقبلون أبداً ﴿ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ أنا الآن، وفيما

(١) تفسيره ١٠/٣١٥.

(٢) فتح القدير ٥/٧٣٧.

استقبل، وهذا في قوم بأعيانهم، أعلمه الله – عزّ وجل – أنهم لا يؤمنون أبداً فكانوا كذلك[١].

واسْتدل له ابن جرير بما ورد في سبب نزول السورة؛ فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: "إن قريشاً وعدوا رسول الله ﷺ أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، ويطئوا عقبه، فقالوا له: هذا لك عندنا يا محمد، وكفَّ عن شتم آلهتنا فلا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة فهي لك ولنا فيها صلاح. قال: "ما هي؟"، قالوا: تعبد آلهتنا سنة اللات والعزي ونعبد إلهك سنة. قال: "حتى أنظر ما يأتي من عند ربي"، فجاء الوحي من اللوح المحفوظ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ السورة، وأنزل الله: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[٢]"[٣].

واختاره الزجاج[٤]، والنحاس[٥]، والثعلبي[٦]، والواحدي[٧]،والسمعاني[٨]،

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير ٢٧٢/١٢، وابن الجوزي ٣٢٣/٨.

(٢) سورة الزمر: الآيات ٦٤ – ٦٦.

(٣) أخرجه ابن جرير ٧٢٨/١٢، وذكر أثراً أخرجه عن سعيد بن مينا، مولى البَخْتري نحوه.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٣٧١/٥.

(٥) إعراب القرآن ٣٠١/٥.

(٦) تفسيره ٣١٥/١٠.

(٧) الوسيط ٥٦٥/٤ ونسبه لابن عباس ومقاتل.

(٨) تفسيره ٢٩٤/٦.

والبغوي[١]، وابن عطية[٢].

**القول الثالث**: أن قوله تعالى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ في الحال، وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ في الاستقبال، وقد ذكره شيخ الإسلام عن المهدوي كما تقدم، وذكره القرطبي، ونسبه للأخفش والمبرد[٣] [٤].

**القول الرابع**: أن المعنى: قل يا أيها الكافرون لا أعبد الأصنام التي تعبدونها، ولا أنتم عابدون الله – عزّ وجل – الذي أعبده؛ لإشراككم به، واتخاذكم الأصنام، فإن زعمتم أنكم تعبدونه فأنتم كاذبون، لأنكم تعبدونه مشركين به، فأنا لا أعبد ما عبدتم، أي مثل عبادتكم، وكذلك ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي ولا أنتم عابدون مثل عبادتي، فـ﴿مَآ﴾ في هاتين الآيتين مصدرية، وهذا حكاه المهدوي كما قال شيخ الإسلام، وذكره القرطبي[٥].

وقد ضعّف هذين القولين شيخ الإسلام كما تقدم.

**القول الخامس**: وهو اختيار شيخ الإسلام، أن قوله تعالى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾

---

(١) تفسيره ٥٣٥/٤.

(٢) تفسيره ٣٧٤/١٦.

(٣) هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمامي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرِّد – بفتح الراء أو بكسرها – إمام العربية ببغداد في زمانه، ولد بالبصرة سنة ٢١٠هـ، وتوفي ببغداد سنة ٢٨٦هـ، من كتبه: المقتضب، والكامل. انظر: تاريخ بغداد ٣٨٠/٣، ولسان الميزان ٤٣٠/٥.

(٤) تفسيره ١٥٥/٢٠، وليس في معاني الأخفش، وانظر: الألوسي ٢٥١/٣٠.

(٥) تفسيره ١٥٦/٢٠، وانظر: تفسير الألوسي ٢٥٣/٣٠.

يتناول نفي عبادته لمعبودهم في الزمان الحاضر والمستقبل، وقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ يتناول ما تعبدونه في الحاضر والمستقبل.

وأما قوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ فهو أعمُّ من النفي في الجملة الأولى، فقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ﴾ يتناول الحال والاستقبال أيضاً لكن فيه زيادة معنى، وهو نفي القبول والإمكان، والمعنى: لا يمكنني ولا يسوغ لي ولا ينبغي لي أن أعبد ما عبدتموه قط، ولو كنتم عبدتموه في الماضي فقط، وقوله: ﴿مَّا عَبَدتُّمْ﴾ يتناول ما عبدوه في الزمن الماضي.

وأما قوله عن الكفار: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ فهو خطاب لجنس الكفار ما داموا كفاراً فإنهم لا يعبدون الله وإنما يعبدون الشيطان، وأتى بالجملة الاسمية ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ﴾ دون الفعلية (ولا تعبدون) ليُبيِّن أن نفوسهم الخبيثة الكافرة بريئة من عبادة إله محمد ﷺ لا يمكن أن تعبده ما دامت كافرة.

قال الألوسي: "ونوقش في إفادة الجملة الاسمية القبول، ولا يبعد أن يقال: إنَّ معنى الجملة الفعلية نفي الفعل في زمان معين، والجملة الاسمية معناه: نفي الدخول تحت هذا المفهوم مطلقاً من غير تعرض للزمان، كأنه قيل: أنا ممن لا يصدق عليه هذا المفهوم أصلاً، وأنتم ممن لا يصدق عليه ذلك المفهوم، فتدبر"(١)، ووافق شيخَ الإسلام الشيخُ محمد العثيمين - رحمه الله -(٢).

---

(١) تفسيره ٢٥١/٣٠.

(٢) تفسير جزي عم ص٣٣٧.

**القول السادس**: أن القرآن كان ينْزل شيئاً بعد شيء، وآيةً بعد آية، فكأنَّ المشركين قالوا له: أسلم ببعض آلهتنا حتى نؤمن بإلهك، فأنزل الله ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ ثم مكثوا مدةً من المدد وقالوا: تعبد آلهتنا يوماً أو شهراً أو حولاً، ونعبد إلهك يوماً أو شهراً أو حولاً، فأنزل الله ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ على شريطة أن تؤمنوا به في وقت وتشركوا به في وقت. ذكره ابن قتيبة[1]، وقد جعل الرازي هذا القول من قبيل التكرار[2].

**القول السابع**: أن قوله تعالى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ لنفي الاستقبال، وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ لنفي الماضي، وهذا قول الزمخشري، حيث قال: "﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ أريد به العبادة فيما يستقبل لأن (لا) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال، كما أن (ما) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال، ألا ترى أن (لن) تأكيد فيما تنفيه (لا)، وقال الخليل في (لن) أن أصله (لا أن)، والمعنى: لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم، ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهي، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾، أي: وما

(١) تأويل مشكل القرآن ص٢٣٧.

(٢) تفسيره ٣٥/٣٢.

كنت قط عابداً فيما سلف ما عبدتم فيه، يعني: لم تعهد مني عبادة صنم في الجاهلية فكيف ترجى مني في الإسلام، ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي: وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته. فإن قلت: فهلا قيل (ما عبدت) كما قيل: ﴿مَّا عَبَدتُّمۡ﴾.

قلت: لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل المبعث وهو لم يكن يعبد الله تعالى في ذلك الوقت"[(١)]، ووافقه ابن الزبير الغرناطي، وذكر أن نفي الماضي بالجملة الاسمية يدل على نفي الحال أيضاً، فيكون ﷺ قد تبرأ من عبادة آلهتهم في مضى وفي الحال وفيما يأتي، وهم كذلك ما عبدوا الله سبحانه كما ينبغي في الأحوال الثلاثة[(٢)].

واعترض أبو حيان على الزمخشري بأن حصره دخول (لا) على المضارع الذي بمعنى الاستقبال، ودخول (ما) على المضارع الذي بمعنى الحال غير صحيح، بل ذلك غالب فيهما غير متحتِّم[(٣)].

**القول الثامن**: قول ابن القيم: إن قوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ نفي للحال والمستقبل، وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ مقابله، أي: لا

(١) تفسير الزمخشري ٢/٢٣٨.
(٢) ملاك التأويل ٢/١١٥٠ – ١١٥٤.
(٣) تفسير أبي حيان ٨/ ٥٢٣.

تفعلون ذلك وقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ أي: لم يكن مني ذلك قط قبل نزول الوحي، ولهذا أتى في عبادتهم بلفظ الماضي فقال: ﴿مَّا عَبَدتُّمْ﴾ فكأنه قال: لم أعبد قط ما عبدتم، وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ مقابله، أي: لم تعبدوا قط في الماضي ما أعبده أنا دائماً، وعلى هذا فلا تكرار أصلاً، وقد استوفت الآيات أقسام النفي ماضياً وحالاً ومستقبلاً عن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظ وأحصره وأبينه"[(١)].

**القول التاسع**: قال أبو حيان: "والذي اختاره في هذه الجمل أنه أولاً نفى عبادته في المستقبل؛ لأن (لا) الغالب أنها تنفي المستقبل،ثم عطف عليه ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ نفياً للمستقبل على سبيل المقابلة،ثم قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ نفياً للحال؛لأن اسم الفاعل الحقيقة فيه دلالته على الحال،ثم عطف عليه ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ نفياً للحال على سبيل المقابلة فانتظم المعنى أنه ﷺ لا يعبد ما تعبدون لا حالاً ولا مستقبلاً، وهم كذلك"[(٢)].

وقال بعضهم: كل واحد منهما يصلح للحال وللاستقبال، ولكنّا نخص أحدهما بالحال والثاني بالاستقبال دفعاً للتكرار[(٣)].

---

(١) بدائع الفوائد ١/١١٢.

(٢) تفسيره ٨/٥٢٣.

(٣) ذكره الرازي ٣٢/١٣٥.

هذا وقد ضعفَ الشوكاني هذه الأقوال، وقال: "كل هذا فيه من التكلف والتعسف ما لا يخفى على منصف"، ورجح التوكيد كما سبق[١].

هذا و لم يترجح عندي قول من الأقوال، لاحتمال اللفظ لها، ولعدم ورود شيء عن السلف فيها، لكنْ القول بالتوكيد غير وجيه ما دام أن هناك معانياً يمكن أن تحمل عليها. والله أعلم.

(١) تفسيره ٥/٥٣٧.

# سورة الكافرون: الآية ٢

قال تعالى: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾.

اختار شيخ الإسلام أن ﴿ مَا ﴾ هي لما لا يعلم، ولصفات من يعلم، فهي للجنس العام، وعلى هذا تشمل كل ما عبد من دون الله.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "جاء الخطاب فيها بـ﴿ مَا ﴾ و لم تجيء بـ(مَنْ) فقيل: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ لم يقل: (لا أعبد من تعبدون) لأن (مَن) لمن يعلم والأصنام لا تعلم، [ وهذا القول ضعيف جدا] فإن معبود المشركين يدخل فيه من يعلم كالملائكة والأنبياء والجن والإنس ومن لم يعلم، وعند الاجتماع تغلب صيغة أولي العلم؛ كما في قوله: ﴿ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ ﴾[1]، فإذا أخبر عنهم بحال من يعلم عبر عنهم بعبادته كما في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآ ﴾ الآية[2] فعبر عنهم بضمير الجمع المذكر وهو لأولي العلم، وأما ما لا يعلم فجمعه مؤنث كما تقول: (الأموال جمعتها والحجارة قذفتها)، فـ(ما) هي لما لا يعلم ولصفات من يعلم، ولهذا تكون للجنس العام؛ لأن شمول الجنس لما تحته هو

---

(١) سورة النور: الآية ٤٥.

(٢) سورة الأعراف: الآيتان ١٩٤ – ١٩٥.

باعتبار صفاته كما قال: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[١]، أي: الذي طاب والطيب من النساء، فلما قصد الإخبار عن الموصوف بالطيب، وقصد هذه الصفة دون مجرد العين عبر بـ﴿ مَا ﴾، ولو عبر بـ(من) كان المقصود مجرد العين والصفة للتعريف حتى لو فقدت لكانت غير مقصودة؛ كما إذا قلت: (جاءني من يعرف، ومن كان أمس في المسجد، ومن فعل كذا) ونحو ذلك.

فالمقصود الإخبار عن عينه والصلة للتعريف وإن كانت تلك الصفة قد ذهبت...".

ثم قال: "فقوله: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ يقتضي تنْزيهه عن كل موصوف بأنه معبودهم؛ لأن كل ما عبده الكافر وجبت البراءة منه"[٢].

## الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بالاسم الموصول ﴿ مَا ﴾ في الآية على ثلاثة أقوال:

**القول الأول**: أنها للجنس العام، فيدخل فيها ما لا يعقل من الأصنام، وصفات من يعلم؛ لأن شمول الجنس لما تحته هو باعتبار صفاته، وعند الاجتماع تغلَّب صفة من يعلم، وهذا اختيار شيخ الإسلام كما تقدم.

---

(١) سورة النساء: الآية ٣.

(٢) مجموع الفتاوى ١٦/٥٩٥ – ٥٩٨.

وهو قول الزمخشري، حيث قال: "فإن قلت فلمَ جاء على ﴿ مَا ﴾ دون (مَنْ) قلت: لأن المراد الصفة، كأنه قال: لا أعبد الباطل، ولا تعبدون الحق، وقيل: إن ﴿ مَا ﴾ مصدرية، أي: لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي"(١).

واختار هذا القول ابن القيم، ونحا نحو شيخ الإسلام في توجيه الإتيان بـ﴿ مَا ﴾ وقال: "إن المقصود هنا ذكر المعبود الموصوف بكونه أهلا للعبادة مستحقا لها فأتى بـ﴿ مَا ﴾ الدالة على هذا المعنى،كأنه قيل: ولا أنتم عابدون معبودي الموصوف بأنه المعبود الحق، ولو أتى بلفظة (من) لكانت إنما تدل على الذات فقط، ويكون ذكر الصلة تعريفاً لا أنه هو جهة العبادة، ففرق بين أن يكون كونه تعالى أهلاً لأن يعبد تعريف محض أو وصف مقتضى لعبادته فتأمله فإنه بديع جدا، وهذا معنى قول محققي النحاة إن (ما) تأتي لصفات من يعلم، ونظيره: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ لَّما كان المراد الوصف وأنه هو السبب الداعي إلى الأمر بالنكاح وقصده وهو الطيب فتنكح المرأة الموصوفة به أتى بـ﴿ مَا ﴾ دون (مَنْ) وهذا باب لا ينخرم، وهو من ألطف مسالك العربية"(٢).

وقال بعضهم إن أريد بها غير الله تعالى؛ فإنه يجوز وقوعها على غير أولي العلم(٣).

---

(١) تفسيره ٤/٢٣٨.

(٢) بدائع الفوائد ١/١١١.

(٣) انظر: الدر المصون ١١/١٣١، وانظر: التحرير والتنوير ٣٠/٥٨٢.

**القول الثاني**: أن المراد بها الأصنام؛ لأن (ما) تستعمل لما لا يعقل، ولو أراد المعبودات التي تعلم أو تعقل كالملائكة والأنبياء والجن والإنس لجاء بـ(مَنْ)[١].

وقد ضعَّف هذا القول شيخ الإسلام وأجاب عنه كما تقدم.

**القول الثالث**: أن ﴿مَا﴾ مصدرية، أي: لا أعبد عبادتكم، ولا تعبدون عبادتي[٢].

والأظهر – والله أعلم – القول الأول؛ لأنه ظاهر الآية، وأما القول الثاني فهو مردود كما تقدم، والقول الثالث خلاف الظاهر.

---

(١) مجموع الفتاوى ٥٩٥/١٦، والدر المصون ١٣١/١١.

(٢) انظر: تفسير الزمخشري ٢٣٨/٤، والرازي ١٣٦/٣٢، والدر المصون ١٣١/١١.

# سورة الكافرون: الآية ٦

قال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

في هذه الآية مسألتان:

**المسألة الأولى**: رجح شيخ الإسلام ما ذهب إليه عامةُ المفسرين من أن هذه الآية محكمة غير منسوخة.

قال – رحمه الله –: "وقد قال طائفة من المفسرين إن هذه السورة منسوخة أي فيما ظنوها دلت عليه من ترك القتال؛ فإنهم ظنوا أن قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ تضمن ترك القتال، ومعلوم أن الله لم يأمر نبيه بمكة بالقتال، بل إنما أمره بالقتال بالمدينة، وأول آية نزلت في القتال قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[1]، فأذن الله لهم أولاً فيه، ثم كتب عليهم ثانياً فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾[2]..."، ثم قال: "فلهذا يوجد كثير من المفسرين يقول في آيات يظن معناها النهي عن القتال: إنها منسوخة بآية السيف، فالذين قالوا: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ منسوخة هذا مأخذهم، والصواب أن هذه الآية لم تتعرض للقتال لا بأمر ولا بنهي، بل مضمونها البراءة من دين الكفار، وهذا أمر مُحكم

---

(١) سورة الحج: الآية ٣٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

لا يُنسخ أبداً"[١].

**الدراسة:**

اختلف المفسرون في هذه الآية، هل هي محكمة أم منسوخة على قولين:

**القول الأول**: ذهب عامة المفسرين إلى أنها محكمة غير منسوخة، لعدم الدليل على نسخها، والأصل الإحكام.

قال القرطبي مبيناً معناها: "ومعنى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ أي: جزاء دينكم، ولي جزاء ديني... وقيل: المعنى: لكم جزاؤكم ولي جزائي، لأن الدين الجزاء"[٢].

وقال ابن القيم: "وقد غلط في السورة خلائق وظنوها منسوخة، وظنوا أنها منسوخة بآية السيف؛ لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم.

وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب، وكلا القولين غلط محض، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص، بل هي محكمة عمومها نص محفوظ، وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها؛ فإن أحكام التوحيد التي اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه، وهذه السورة أخلصت التوحيد، ولهذا تسمى سورة الإخلاص كما تقدم، ومنشأ الغلط ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم، ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف، فقالوا: منسوخ، وقالت طائفة زال عن بعض الكفار وهم من لا

---

(١) الصفدية ص٥٦٠ – ٥٦٤.

(٢) تفسيره ١٥٦/٢٠، وانظر: الألوسي ٢٥٤/٣٠.

كتاب لهم، فقالوا: هذا مخصوص، ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريراً لهم، أو إقراراً على دينهم أبداً، بل لم يزل رسول الله في أول الأمر وأشده عليه وعلى أصحابه أشد على الإنكار عليهم وعيب دينهم وتقبيحه والنهي عنه والتهديد والوعيد كل وقت وفي كل ناد، وقد سألوه أن يكف عن ذكر آلهتهم وعيب دينهم ويتركونه وشأنه فأبى إلا مضياً على الإنكار عليهم وعيب دينهم، فكيف يقال إن الآية اقتضت تقريره لهم !.

معاذ الله من هذا الزعم الباطل..."[١].

وقال الألوسي: "والأولى أن تفسر بما لا تكون عليه منسوخة؛ لأن النسخ خلاف الظاهر، فلا يصار إليه إلا عند الضرورة"[٢].

**القول الثاني**: أنها منسوخة.

قال الزجاج عند هذه الآية: "قيل هذا قبل أن يؤمر النبي ﷺ بالقتال"[٣].

وقال الثعلبي: "وهذه الآية منسوخة بآية السيف"[٤]، واختاره أبو حيان[٥]، وقيل: السورة كلها منسوخة[٦].

وقال ابن الجوزي في نواسخ القرآن: "قال كثير من المفسرين: هو منسوخ بآية السيف، وإنما يصلح هذا إذا كان المعنى: قد أقررتم على دينكم، وإذا لم

---

(١) بدائع الفوائد ١١٦/١ – ١١٧.

(٢) تفسيره ٢٥٤/٣٠.

(٣) معاني القرآن ٣٧١/٥.

(٤) تفسيره ٣١٧/١٠، وانظر: تفسير ابن عطية ٣٧٥/١٦.

(٥) تفسيره ٥٢٣/٨.

(٦) تفسير القرطبي ١٥٦/٢٠.

يكن هذا مفهوم الآية بَعُدَ النسخ"[١].

ونسبته هذا القول لأكثر المفسرين غير مُسلَّمة.

واعترض شيخ الإسلام على هذا القول بأن هذه السورة مكية، والجهاد إنما فرض بالمدينة، وهذه الآية لم تتضمن ترك القتال، بل مضمونها البراءة من دين الكفار، وهذا أمر محكم لا ينسخ أبداً.

والراجح – والله أعلم – القول الأول لعدم الدليل على النسخ، ولأنه لا تعارض بينها وبين آية السيف.

**المسألة الثانية**: رجح شيخ الإسلام أن الخطاب في هذه الآية عام لجميع الكفار.

قال – رحمه الله –: "فقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ خطاب عام لجميع الكفار، كما دلت عليه الآية، وبهذا يظهر خطأ من قال إنه خطاب للمشركين والنصارى دون اليهود،كما في قول ابن زيد... فهذا الذي ذكره من أن اليهود لا تشرك كما أشركت العرب والنصارى صحيح لكنهم مع هذا لا يعبدون الله، بل يستكبرون عن عبادته ويعبدون الشيطان لا يعبدون الله، ومن قال إن اليهود تعبد الله فقد غلط غلطاً قبيحاً... وقبل إرسال محمد إنما كان يعبد الله من عبده بما أمر به، فأما من ترك عبادته بما أمر به واتبع هواه فهو لا يعبد الله إنما يعبد الشيطان ويعبد الطاغوت، وقد أخبر الله عن اليهود بأنهم عبدوا الطاغوت وأنه لعنهم وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وعبد

---

(١) نواسخ القرآن ص٢١٥.

الطاغوت.. وهم أشد عداوة للمؤمنين من النصارى وكفرهم أغلظ وهم مغضوب عليهم، ولهذا قيل: إنهم تحت النصارى في النار. واليهود إن لم يعبدوا المسيح فقد افتروا عليه وعلى أمه بما هو أعظم من كفر النصارى، ولهذا جعل الله النصارى فوقهم إلى يوم القيامة، فالنصارى مشركون يعبدون الله ويشركون به، وأما اليهود فلا يعبدون الله بل هم معطلون لعبادته مستكبرون عنها كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون، بل هم متبعون أهواءهم عابدون للشيطان، فالنبي والمؤمنون لا يعبدون ما تعبده اليهود، والسورة لم يقل فيها: (يا أيها المشركون) حتى يقال فيها إنها إنما تناولت من أشرك، بل قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1] فتناولت كل كافر سواء كان ممن يظهر الشرك أو كان فيه تعطيل لما يستحقه الله واستكبار عن عبادته، والتعطيل شر من الشرك وكل معطل فلا بد أن يكون مشركاً"[2].

**الدراسة:**

اختلف المفسرون في الخطاب في هذه الآية على قولين:

**القول الأول**: أن الخطاب عام لجميع الكفار،كما هو ظاهر الآية،وهذا قول عامة المفسرين[3].

**القول الثاني**: أنه خطاب للمشركين والنصارى دون اليهود؛ وهذا قول ابن زيد.

---

(١) سورة الكافرون: الآية ١.

(٢) مجموع الفتاوى ٥٦٤/١٦ باختصار، وانظر: ٥٦١ - ٥٨١، ومنهاج السنة ٢٦٣/٣، ٢٦٧.

(٣) انظر تفسير ابن جرير ٧٢٨/١٢، وابن عطية ١٦/ ٣٧٥، والبغوي ٤/ ٥٣٥، والقرطبي ٢٠/ ١٥٦.

قال ابن زيد عند هذه الآية: "قال: للمشركين، قال: واليهود لا يعبدون إلا الله ولا يشركون؛ إلا أنهم يكفرون ببعض الأنبياء وبما جاؤوا به من عند الله ويكفرون برسول الله وبما جاء به من عند الله وقتلوا طوائف الأنبياء ظلماً وعدواناً، قال: إلا العصابة التي بقوا حتى خرج بختنصر، فقالوا: عزير ابن الله دَعيٌّ الله، ولم يعبدوه ولم يفعلوا كما فعلت النصارى، قالوا: المسيح ابن الله، وعبدوه"(١).

وهذا القول مخالف لظاهر الآية، والقول بأن اليهود لا يعبدون إلا الله غير مسلَّم، وتقدم تقرير ذلك في كلام شيخ الإسلام، ولم أر من قال به من المفسرين غير ابن زيد.

والراجح – والله أعلم – القول الأول، لعموم الآية في جميع الكفار، ولأن اليهود عندهم شرك.

(١) أخرجه ابن جرير ٧٢٨/١٢، وانظر [ ط التركي ] ٧٠٤/٢٤.

# سورة الإخلاص: الآية ٢

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾[1].

رجح شيخ الإسلام أن ﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ له معنيان، كلاهما حق، أحدهما: السَّيد، والثاني: الذي لا جوف له.

ولشيخ الإسلام كلام طويل جداً في هذا الاسم الكريم،لا سيما في تفسير سورة الإخلاص،حيث قال في مُبتدأ تفسير هذه السورة: "والاسم ﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ فيه للسلف أقوال متعددة، قد يُظن أنها مختلفة،وليست كذلك، بل كلها صواب والمشهور منها قولان:

أحدهما: أن الصمد هو الذي لا جوف له.

والثاني: أنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج.

والأول هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة، والثاني قول طائفة من السلف والخلف وجمهور اللغويين، والآثار المنقولة عن السلف بأسانيدها في كتب التفسير المسندة وفي كتب السنة وغير ذلك، وقد كتبنا من الآثار في ذلك شيئاً كثيراً بإسناده فيما تقدم، وتفسير ﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ بأنه الذي لا جوف له معروف عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً، وعن ابن عباس، والحسن البصري، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والضحاك، والسدي، وقتادة، وبمعنى ذلك قال سعيد بن المسيب قال: هو الذي لا حشو له.

---

(١) سورة الصمد: الآية ٢.

وكذلك قال ابن مسعود: هو الذي ليست له أحشاء. وكذلك قال الشعبي: هو الذي لا يأكل ولا يشرب. وعن محمد بن كعب القرظي وعكرمة: هو الذي لا يخرج منه شيء. وعن ميسرة قال: هو المصمت. قال ابن قتيبة: كأن الدال في هذا التفسير مبدلة من تاء والصمت من هذا.

قلت: لا إبدال في هذا ولكن هذا من جهة الاشتقاق الأكبر، وسنبين إن شاء الله وجه القول من جهة الاشتقاق واللغة".

ثم ذكر سبب نزول هذه الآية،وهو ما أخرجه أحمد عن أُبي بن كعب: "أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك فأنزل الله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾[1] إلى آخر السورة.

قال: "الصمد الذي لم يلد و لم يولد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله لا يموت ولا يورث"[2].

ثم قال: "وأما تفسيره بأنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج فهو أيضاً مروي عن ابن عباس موقوفاً ومرفوعاً، فهو من تفسير الوالبي عن ابن عباس قال: الصمد السيد الذي كمل في سؤدده.

وهذا مشهور عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: هو السيد الذي انتهى سؤدده. وعن عكرمة: الصمد الذي ليس فوقه أحد. ويروى هذا عن علي،

---

(١) سورة الإخلاص: الآيتان ١ – ٢.

(٢) يأتي تخريجه.

وعن كعب الأحبار[١]: الذي لا يكافئه من خلقه أحد. وعن السدي أيضا: هو المقصود إليه في الرغائب والمستغاث به عند المصائب".

ثم ذكر عن بعض السلف وأهل اللغة نحو هذا المعنى، ثم قال: "وقال قتادة: الصمد الباقي بعد خلقه. وقال مجاهد ومعمر[٢]: هو الدائم.

وقد جعل الخطابي[٣] وأبو الفرج ابن الجوزي الأقوال فيه أربعة هذين واللذين تقدما، وسنبيِّن – إن شاء الله – أن بقاءه ودوامه من تمام الصمدية"[٤].

ثم ذكر جملة كبيرة من أقوال السلف واللغويين في معنى هذا الاسم الكريم، ونقل عن ابن أبي حاتم وابن جرير ما روياه بأسانيدهما عن بعض السلف في هذا المعنى[٥].

وكان من ضمن ما قال: "قلت: الاشتقاق يشهد للقولين جميعاً، قول من

---

(١) هو كعب بن ماتع بن ذي هجين الحميري، أبو إسحاق، تابعي ثقة، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود، أسلم زمن أبي بكر، وقدم المدينة زمن عمر، توفي بحمص سنة ٣٢هـ عن مائة وأربع سنين. انظر: حلية الأولياء ٣٦٤/٥، والتقريب ص٤٦١.

(٢) هو معمر بن راشد الأزدي مولاهم، أبو عروة، ثقة فقيه حافظ للحديث، ولد بالبصرة سنة ٩٥هـ، نزل اليمن، وتوفي سنة ١٥٣هـ، وهو أول من صنف باليمن. سير أعلام النبلاء ٥/٧، والتقريب ص٥٤١.

(٣) هو الإمام العلامة المفيد المحدث الرحال، أبو سليمان، حَمْدُ بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي، من مؤلفاته: شرح البخاري، ومعالم السنن، توفي سنة ٣٨٨ هـ. انظر: طبقات الحفاظ ٤٠٤/١، وسير أعلام النبلاء ٢٣/١٧.

(٤) مجموع الفتاوى ٢١٤/١٧ – ٢١٨، باختصار.

(٥) مجموع الفتاوى ٢١٨/١٧ – ٢٤٠.

قال: إن ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لا جوف له، وقول من قال: إنه السيد، وهو على الأول أدلُّ؛ فإن الأول أصل للثاني، ولفظ ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يقال على ما لا جوف له في اللغة"(١).

وقال – رحمه الله –: "قال ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير وخلق من السلف: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لا جوف له. وقال آخرون: هو السيد الذي كمل في سؤدده. وكلا القولين حق؛ فإن لفظ ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ في اللغة يتناول هذا وهذا، والصمد في اللغة: السيد؛ والصمد أيضا المصمد، والمصمد: المصمت، وكلاهما معروف في اللغة"(٢).

## الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بـ ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ على أقوال خمسة:

**القول الأول**: أنه السيد الذي يُصْمَدُ إليه في الحوائج، أو السيد الذي قد انتهى سؤدده.

قال ابن عباس ﷺ مبيناً معناه: "السيد الذي كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد عظم في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٢٦/١٧.

(٢) مجموع الفتاوى ٣٥٣/٥، وانظر: مجموع الفتاوى ١٤٩/٨، والجواب الصحيح ٤٠٧/٤، والمنهاج ٢٩/٨، وبيان تلبيس الجهمية ٢٤٨/٢.

جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمتـــه، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له"(١).

وعن أبي وائل قال: "﴿ٱلصَّمَدُ﴾: السيد الذي قد انتهى سؤدده"(٢).

واستدل أصحاب هذا القول أيضاً باللغة، وقالوا: إن العرب يطلقون الصمد على السيد الذي ينتهي إليه السؤدد، كما قال الشاعر:

لقد بكَّر الناعي بِخَيْرَيْ بني أسد ** بعمرو بن مسعود وبالسيد الصَّمد(٣)

وقول الآخر(٤):

علوتـــه بُحسام ثم قلـــت لـــه ** خذها حُذَيفُ فأنت السيد الصَّمدُ

ورجح هذا القول ابن جرير، وقال: "الصَّمَدَ عند العرب هو السيد الـــذي يُصْمَدُ إليه، الذي لا أحد فوقه، وكذلك تسمي أشرافها، ومنه قول الشاعر:

ألا بكَّر الناعي بِخَيْرَيْ بني أسد ** بعمرو بن مسعود وبالسيد الصَّمد

وقال الزبرقان: ولا رهينة إلا سيد صمد

فإذا كان ذلك كذلك فالذي هو أولى بتأويل الكلمة المعنى المعروف مـــن

---

(١) أخرجه ابن جرير ٧٤٤/١٢، وهي رواية علي بن أبي طلحة عنه.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٤٧٥/٣ [ ط محمود عبده ]، وابن جرير ٧٤٣/١٢، ٧٤٤.

(٣) اختلف في قائله، فقيل: لسبرة بن عمرو الأسدي، انظر: اللسان مادة (صَمَدَ) ٢٤٩٥/٤، وقال: "والصَمَدُ بالتحريك: السيد المطاع الذي لا يقضى دونه أمر، وقيل: الذي يصمد إليه في الحوائج، أي: يقصد"، وانظر: مجاز القرآن ٣١٦/٢.

(٤) لم أعرف قائله، وهو في اللسان مادة (صَمَدَ) ٢٤٩٥/٤.

كلام من نزل القرآن بلسانه ولو كان حديث[١] بن بريدة عن أبيه صحيحاً كان أولى الأقوال بالصحة؛ لأن

رسول الله أعلم بما عنى الله جل ثناؤه وبما أُنزل عليه"[٢].

كما اختاره ابن عطية، وقال: "﴿ٱلصَّمَدُ﴾ في كلام العرب السَّيد الذي يُصمد إليه في الأمور، ويستقل بها"[٣].

وممن اختاره الزمخشري[٤]، وقال: "فعل بمعنى مفعول"، والقرطبي[٥]، والبيضاوي[٦]، وابن جُزي[٧]، والألوسي[٨].

ورُوي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: "السيد الذي يصمد إليه في الحوائج"[٩].

وهو فعل بمعنى مفعول، من صمد إليه إذا قصده، وهو السيد المصمود إليه

---

١ يأتي ذكره في ص ٦٩٩.

(٢) تفسيره ٧٤٤/١٢.

(٣) تفسيره ٣٨٣/١٧.

(٤) الكشاف ٢٤٢/٤.

(٥) تفسيره ١٦٨/١٧.

(٦) تفسيره ٦٣١/٢.

(٧) تفسيره ٦٢٥/٢٥.

(٨) تفسيره ٢٧٤/٣٠.

(٩) أخرجه الطبراني ٢٥٥/١٠، قال في مجمع الزوائد ٣٠٨/٦ [ ط الكتاب العربي ]: "وفيه جويبر وهو متروك، وهو حديث نافع بن الأزرق".

في الحوائج، ويستقل بها[١].

قال ابن الأنباري: "لا خلاف بين أهل اللغة أن الصَّمد: هو السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه الناس في أمورهم وحوائجهم"[٢].

**القول الثاني**: أنه الذي لا جوف له، وبه قال ابن عباس -رضي الله عنهما- وبريدة[٣] ﷺ، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وسعيد بن جبير، والحسن وعامر الشعبي. [٤].

وقال الشعبي: "الذي لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب". وقال ابن المسيَّب: "الذي لا حِشْوة له"[٥].

ومنه قول الشاعر[٦]:

شهابُ حُروب لا تزال جيادُه ** عوابس يعْلُكْن الشَّكيم[٧] المُصَمَّدا

---

(١) تفسير الألوسي ٢٧٤/٣٠.

(٢) انظر: تفسير أبي حيان /٥٢٩.

(٣) قال عبدالله بن بريدة الراوي عن أبيه: "لا أعلمه إلا قد رفعه"تفسير ابن جرير ٧٤٢/١٢، لكن ابن جرير يُضعِّف رفعه كما تقدم، وقال ابن كثير ٦١٠/٤: "غريب جداً، والصحيح أنه موقوف على عبدالله بن بريدة".

(٤) أخرجه عنهم ابن جرير ٧٤٢/١٢ - ٧٤٣، وأخرجه عن عكرمة ومجاهد عبدالرزاق ٤٧٥/٣.

(٥) أخرجه عنهما ابن جرير ٧٤٢/١٢.

(٦) و لم أعرف قائله.

(٧) الشَّكيم، والشَّكيمة: حديدة اللجام المعترضة في فم الفرس. انظر: مختار الصحاح ص١٥٥ مادة (شكم).

استدل به الماوردي[١]، والقرطبي[٢]، و أبو حيان[٣].

قال الشوكاني: "وهذا لا ينافي القول الأول لجواز أن يكون هذا أصل معنى الصَّمد، ثم استعمل في السيد المصمود إليه في الحوائج، ولهذا أطبق على القول الأول أهل اللغة وجمهور أهل التفسير"[٤].

**القول الثالث**: أنه الذي لا يخرج منه شيء، قال عكرمة: "الذي لم يخرج منه شيء و لم يلد و لم يولد"[٥].

**القول الرابع**: أنه الذي لم يلد و لم يولد، قال أبي بن كعب ﷺ: "قال المشركون: لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ فالصمد الذي لم يلد و لم يولد، لأنه ليس شيءٌ يولد إلا سيموت، ولا شيء يموت إلا سيورث، وإن الله – عزّ وجل– لا يموت ولا يورث"[٦].

---

(١) تفسيره ٣٧١/٦.

(٢) تفسيره ١٦٨/١٧.

(٣) تفسيره ١٥١/٨.

(٤) تفسيره ٧٥٢/٥.

(٥) أخرجه ابن جرير ٧٤٣/١٢.

(٦) أخرجه أحمد١٣٣/٥، والترمذي ٤٢١/٥ ح٣٣٦٤، كتاب التفسير، باب ومن سورة الإخلاص، وأخرجه الثعلبي ٣٣٤/١٠، ورواه الترمذي في الموضع السابق عن أبي العالية مرسلاً، قال: "وهذا أصح".

وبه قال أبو العالية، وأبو سعيد الصنعاني[١]، ومحمد بن كعب، وعلى هذا القول يكون قوله تعالى بعده: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ تفسيراً له[٢].

وهذان القولان بمعنى القول الثاني.

**القول الخامس**: أنه الباقي الذي لا يفنى؛ قاله الحسن[٣].

وقال قتادة: "الباقي بعد خلقه"، وروي عنه أنه قال: "الصَّمد الدائم"[٤].

وهذا القول يمكن أن يدخل في معنى القول الأول، وتقدم قول شيخ الإسلام أن بقاءه ودوامه من تمام الصمدية. وهناك أقوال أخرى بمعنى ما ذكر[٥].

وشيخ الإسلام يرى أن كل ما ورد عن السلف في معنى الصمد صواب، وأنه لا تعارض بين أقوالهم، ويردُّ الأقوال المذكورة فيه إلى القولين الأول والثاني، وأن كليهما وارد عن السلف وأهل اللغة، وأن الاشتقاق اللغوي يشهد للقولين جميعاً[٦].

---

(١) هو أبو سعد الصّاغاني أو الصَّغَّانيُّ كما في طبعة دار هجر٧٤٣/٢٤، وهو محمد بن مَيَسَّر- على وزن محمد- الجعفي البلخي أبو سعيد الضرير،نزيل بغداد،متروك الحديث روى عن هشام بن عروة وابن جريج وابن إسحاق وغيرهم انظر ميزان الاعتدال ٥٢/٤، وتهذيب التهذيب ٤٨٤/٩، والتقريب ص ٥٠٩،رقم (٦٣٤٤)

(٢) انظر: تفسير السمعاني ٣٠٤/٦، وأضواء البيان ١٨٦/٢.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٤٧٥/٣ [ ط محمود ]، وابن جرير ٧٤٤/١٢.

(٤) أخرجه ابن جرير ٧٤٤/١٢.

(٥) انظر: تفسير الثعلبي ٣٣٥/١٠، والماوردي ٣٧١/٦، والرازي ١٦٦/٣٢.

(٦) وانظر: قواعد الترجيح عند المفسرين ٥١١/٢، ٥١٦ فقد ذكر هذه الآية وكلام شيخ الإسلام حولها مثالاً لقاعدة: القول الذي يؤيده تصريف الكلمة وأصلُ اشتقاقها أولى بتفسير الآية.

وقد وافق شيخ الإسلام في حمل الاسم الكريم على المعاني المذكورة كلِّها بعضُ المفسرين منهم الزجاج، حيث قال بعد أن ذكر بعض الأقوال في معنى الصّمد: "وكلها تدل على وحدانيته، وهذه الصفات كلها يجوز أن تكون لله عزّ وجل"(١).

وهو ظاهر اختيار الشنقيطي حيث قال بعد أن ذكر الأقوال في معناه: "فالله – تعالى – هو السيد الذي هو وحده الملجأ عند الشدائد والحاجات، وهو الذي تنَزه وتقدس وتعالى عن صفات المخلوقين، كأكل الطعام ونحوه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً"(٢).

كما اختاره أيضاً ابن عاشور وقال بعد أن ذكر **القول الأول**: "وقد كثرت عبارات المفسرين من السلف في معنى الصّمد، وكلها مندرجة تحت هذا المعنى الجامع"(٣).

وما ذهب إليه شيخ الإسلام ومن وافقه هو الراجح؛ لأن الأقوال المذكورة في معنى الاسم الكريم ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ ترجع إلى القولين الأول والثاني، وكلاهما ثابت لله تعالى.

---

(١) معاني القرآن ٣٧٨/٥.

(٢) أضواء البيان ١٨٧/٢.

(٣) تفسيره ٢٢٦/٣٠.

# سورة الفلق: الآية ١

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن المراد بالفلق كل ما فَلَقَه الربُّ تعالى، وهو جميع الخلق، وقد يُراد به الخصوص وهو الصبح.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "قال تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾[٣]، والفلق: فعل بمعنى مفعول، كالقبض بمعنى المقبوض، فكل ما فلقه الرب فهو فلق. قال الحسن: الفلق كل ما انفلق عن شيء؛ كالصبح والحب والنوى. قال الزجاج: وإذا تأملت الخلق بان لك أن أكثره عن انفلاق كالأرض بالنبات والسحاب بالمطر. وقد قال كثير من المفسرين: الفلق الصبح؛ فإنه يقال هذا أبين من فلق الصبح وفرق الصبح. وقال بعضهم: الفلق الخلق كله.

وأما من قال: إنه واد في جهنم أو شجرة في جهنم أو أنه اسم من أسماء جهنم؛ فهذا أمر لا تعرف صحته لا بدلالة الاسم عليه، ولا بنقل عن النبي ﷺ ولا في تخصيص ربوبيته بذلك حكمة، بخلاف ما إذا قال: رب الخلق، أو رب كل ما انفلق، أو رب النور الذي يظهره على العباد بالنهار فإن في تخصيص هذا بالذكر ما يظهر به عظمة الرب المستعاذ به.

---

(١) سورة الفلق: الآية ١.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٩٥.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٩٦.

وإذا قيل: الفلق يعم ويخص فبعمومه للخلق أستعيذ من شر ما خلق، وبخصوصه للنور النهاري أستعيذ من شر غاسق إذا وقب"[١].

## الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بالفلق في الآية على أقوال أربعة:

**القول الأول**: أنه الخَلْقُ كلُّه، والمعنى: قل أعوذ برب الخلق، وروي عن ابن عباس – رضي الله عنهما –[٢]، وعن الحسن أنه قال: "كل ما انفلق عن جميع ما خَلق من الحيوان، والصبح، والحبِّ، والنَّوى، وكل شيء من نبات وغيره"[٣].

وبه قال الضحاك[٤].

واستُدل له بقول الشاعر[٥]:

وَسْوس يدعو مخلصاً ربَّ الفلق ** سِراً وقد أوَّن تأْوين العُقق

واختاره الزجاج، وقال: "هو فلق الصبح، وهو ضياؤه، ويقال أيضاً: فَرَق الصبح، يقال: هو أبين من فلق الصبح، ومعنى الفلق: الخلق، قال الله – عزّ

---

(١) مجموع الفتاوى ٥٠٤/١٧، وانظر: ص٥٣٣.

(٢) أخرجه ابن جرير ٧٤٨/١٢، وهي رواية الوابلي عنه، وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر ٧١٨/٦.

(٣) ذكره الماوردي ٣٧٤/٦.

(٤) نسبه إليه الماوردي ٣٧٤/٦، والقرطبي ١٧٤/١٧، وابن كثير ٦١٣/٤.

(٥) لم أعرفه، وقد استدل به القرطبي ١٧٤/٢٠.

وجل –: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ ﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾، وكذلك فَلَقْ الأرض بالنبات والسحاب بالمطر(١)، وإذا تأملت الخلق تبين لك أن خلقَه أكثَره عن انفلاق، فالفلق جميع المخلوقات، وفلق الصبح من ذلك"(٢).

كما رجحه ابن جرير، وقال: "والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه أمر نبيه محمداً أن يقول: أعوذ برب الفلق، والفلق في كلام العرب: فلق الصبح، تقول العرب: هو أبين من فلق الصبح ومن فرق الصبح، وجائز أن يكون في جهنم سجن اسمه فلق، وإذا كان ذلك كذلك و لم يكن جل ثناؤه وضع دلالة على أنه عنى بقوله: ﴿ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ بعض ما يدعى الفلق دون بعض، وكان الله تعالى ذكره رب كل ما خلق من شيء وجب أن يكون معنياً به كل ما اسمه الفلق إذْ كان ربَّ جميع ذلك"(٣)، واختاره الرازي(٤).

قال القرطبي: "قلت: هذا القول يشهد له الاشتقاق؛ فإن الفلْق الشَّق، فَلَقْت الشيء فلقاً أي شققته، والتفليق مثله، يقال: فلقته، فانفلق وتفلَّق، فكل ما انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحبٍّ ونوى وماء فهو فَلْق قال الله تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾، وقال: ﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ الحب والنوى"(٥).

---

(١) وهناك أقوال أخرى هي أمثلة أخرى لهذا القول، انظر: الثعلبي ٣٣٩/١٠.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٣٧٩/٥.

(٣) تفسير ابن جرير ٧٤٨/١٢.

(٤) تفسيره ١٧٦/٣٢.

(٥) تفسيره ١٧٤/٢٠، وانظر: اللسان مادة (فلق) ٣٤٦٢/٦.

**القول الثاني**: أن المراد بالفلق الصُّبح؛ وبه قال ابن عباس[١]، وجابر بن عبد الله ﷺ، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب القرظي، والحسن، وقتادة، وابن زيد[٢]، وقرأ: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾[٣].

واختاره الفراء وقال: "الفلق: الصبح، يقال: هو أبين من فَلق الصبح، وفَرَق الصبح"[٤]، كما اختاره النحاس، حيث ذكر الأقوال فيه، ثم قال: "وإذا وقع الاختلاف وجب أن يُرجع إلى اللسان الذي نزل به القرآن، والعرب تقول: هو أبينُ من فلق الصبح، وفرقه، يعنون الفجر"[٥].

واختاره السمعاني[٦]، والبغوي ونسبه لأكثر المفسرين[٧]، وابن القيم[٨]، وابن كثير[٩]، وابن عاشور[١٠].

---

(١) وهي رواية العوفي عنه.

(٢) أخرجه عنهم ابن جرير ٧٤٧/١٢ – ٧٤٨، وأخرجه عن قتادة أيضاً عبد الرزاق ٧٤٦/٣ [ ط محمود عبده ].

(٣) سورة الأنعام: الآية ٩٦، واستدل بالآية أيضاً الثعلبي ٣٣٩/١٠، والسمعاني ٣٠٥/٦، والبغوي ٥٤٧/٤.

(٤) معاني القرآن ٣٠١/٣.

(٥) إعراب القرآن ٣١٣/٥.

(٦) تفسيره ٣٠٥/٦.

(٧) تفسيره ٥٤٧/٤، ونسبه الرازي ١٧٥/٣٢ أيضاً لأكثر المفسرين، والشوكاني ٧٥٧/٥.

(٨) بدائع الفوائد ٣٥٩/٢.

(٩) تفسيره ٦١٣/٤.

(١٠) تفسيره ٦٢٦/٣٠.

واستدل لهذا القول بقول الشاعر:

يا ليلـــةً لم أنمهـــا بـــتُّ مُرتقبـــاً ** أرعى النجوم إلى أن قُدَّ الفَلَـــق[١]

وهو فعل بمعنى مفعول، كالقبض، أي: مفلوق[٢].

والفَلَق في اللغة يُطلق على: الخَلْق كلِّه، ويطلق على الصبح مشتق من الفَلْق، وهو الشَّق[٣].

واختاره الشوكاني، وقال: "لأن المعنى وإن كان أعمَّ منه وأوسع مما تضمنه لكنه المتبادر عند الإطلاق"[٤].

**القول الثالث**: أنه سِجْنٌ في جهنم، ورُوي عن ابن عباس[٥] – رضـــي الله عنهما –، وعن السدي أنه جُبٌّ في جهنم[٦]، وعن كعب الأحبار أنه بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره[٧]، وعن ابن عمر– رضي الله

---

(١) استدل به الماوردي ٣٧٤/٦، والقرطبي ١٧٤/١٧، وأبو حيان ٥٣٢/٨، ولم أعرف قائله، وقُدَّ: شقَّ. انظر المعجم الوسيط ٧١٨/٢ مادة (قدَّ).

(٢) البحر المحيط ١٥٧/٨.

(٣) انظر: اللسان ٣٤٦٢/٦ مادة (فَلَق).

(٤) تفسيره ٧٥٨/٥.

(٥) أخرجه عنه ابن جرير ٧٤٦/١٢، من طريقين في كليهما مجهول، ورُوي مرفوعاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص، ذكره في الدر بنحوه ٧١٧/٦ وعزاه لابن مردويه والديلمي.

(٦) أخرجه ابن جرير ٧٤٦/١٢، ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: "الفلق جُبٌّ في جهنّم مُغطًّى"أخرجه ابن جرير ٧٤٦/١٢ عن أبي هريرة، وعزاه السيوطي في الدر ٧١٧/٦ لابن مردويه عن عمرو بن عَبَسَة مرفوعاً بنحوه، قال ابن كثير في تفسيره ٦١٣/٤: "منكر، إسناده غريب ولا يصح رفعه".

(٧) أخرجه ابن جرير ٧٤٧/١٢.

عنهما – أنه شجرة في النار، وعن ابن السائب أنه واد في جهنم[١]، وعن أبي عبدالرحمن الحُبُليّ[٢] [٣]: أنه اسم من أسماء جهنم.

قال الزمخشري عند قول من قال: واد في جهنّم أو جبّ: "من قولهم لما اطمأن من الأرض الفلق"[٤].

وقد ضعَّف هذه الأقوال شيخ الإسلام كما تقدم.

والقول الراجح – والله أعلم – القول الأول، وهو قول شيخ الإسلام ومن وافقه؛ لدلالة القرآن عليه، وكذا الاشتقاق، ولأن القول الثاني داخل فيه ومثال له، وأما الأقوال الأخرى فهي ضعيفة، وتقدم تقرير ذلك.

---

(١) ذكرها ابن الجوزي ٨/٣٣٣.

(٢) هو عبد الله بن يزيد المعافري، أبو عبد الرحمن الحُبُليُّ، تابعي ثقة، توفي سنة مئة. انظر: معرفة الثقات ٢/٦٦، والتقريب ص ٣٢٩.

(٣) أخرجه ابن جرير ١٢/٧٤٧.

(٤) تفسيره ٤/٢٤٣، وانظر: القرطبي ١٧/١٧٤.

# سورة الفلق: الآية ٣

قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن المراد بالغاسق الليل، ويدخل فيه آيته من القمر والنجوم.

قال – رحمه الله – عند هذه الآية: "فإن الغاسق قد فُسِّر بالليل كقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾[٢]، وهذا قول أكثر المفسرين وأهل اللغة، قالوا: ومعنى ﴿وَقَبَ﴾: دخل في كل شيء. قال الزجاج: الغاسق البارد، وقيل: الليل غاسق؛ لأنه أبرد من النهار.

وقد روى الترمذي والنسائي عن عائشة أن النبي ﷺ نظر إلى القمر فقال: "يا عائشة ! تعوذي بالله من شره؛ فإنه الغاسق إذا وقب"، وروي من حديث أبي هريرة مرفوعاً"أن الغاسق النجم"[٣]. وقال ابن زيد: هو الثريا، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها، وهذا المرفوع قد ظن بعض الناس منافاته لمن فسره بالليل فجعلوه قولاً آخر، ثم فسروا وقوبه بسكونه. قال ابن قتيبة: ويقال الغاسق القمر إذا كسف واسود، ومعنى ﴿وَقَبَ﴾: دخل في الكسوف. وهذا ضعيف فإن ما قال رسول الله ﷺ لا يعارض بقول غيره، وهو لا يقول إلا الحق، وهو لم يأمر عائشة بالاستعاذة منه

---

(١) سورة الفلق: الآية ٣.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٨.

(٣) ويأتي تخريجهما قريباً.

عند كسوفه بل مع ظهوره، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾[1]، فالقمر آية الليل، وكذلك النجوم إنما تطلع فترى بالليل، فأمره بالاستعاذة من ذلك أمر بالاستعاذة من آية الليل ودليله وعلامته، والدليل مستلزم للمدلول، فإذا كان شر القمر موجوداً فشر الليل موجود، وللقمر من التأثير ما ليس لغيره فتكون الاستعاذة من الشر الحاصل عنه أقوى، ويكون هذا كقوله عن المسجد المؤسس على التقوى: "هو مسجدي هذا"[2] مع أن الآية تتناول مسجد قباء قطعاً.

وكذلك قوله عن أهل الكساء: "هؤلاء أهل بيتي"[3] مع أن القرآن يتناول نساءه، فالتخصيص لكون المخصوص أولى بالوصف؛ فالقمر أحق ما يكون بالليل بالاستعاذة، والليل مظلم تنتشر فيه شياطين الإنس والجن ما لا تنتشر بالنهار، ويجري فيه من أنواع الشر ما لا يجري بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسحر والسرقة والخيانة والفواحش وغير ذلك، فالشر دائماً مقرون بالظلمة، ولهذا إنما جعله الله لسكون الآدميين وراحتهم، لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار ويتوسلون بالقمر وبدعوته والقمر وعبادته، فذكر سبحانه الاستعاذة من شر الخلق عموماً

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٢.

(٢) أخرجه مسلم ١/١٠١٥ ح١٣٩٨، كتاب الحج، باب بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ، عن أبي سعيد.

(٣) سبق تخريجه في ص ٢٧٦.

ثم خص الأمر بالاستعاذة من شر الغاسق إذا وقب وهو الزمان الذي يعمُّ شرُّه ثم خُصَّ بالذكر السحر والحسد"[١].

وقال – رحمه الله –: "ومثاله أيضاً – أي القولين المتلازمين – تفسير (الغاسق) بالليل، وتفسيره بالقمر، فإن ذلك ليس باختلاف؛ بل يتناولهما لتلازمهما، فإن القمر آية الليل، ونظائره كثيرة"[٢].

## الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بالغاسق في الآية على أقوال أربعة[٣]:

**القول الأول**: أنه القمر، وقد ورد هذا في حديث مرفوع، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر، فقال: "استعيذي بالله من شرِّ هذا فإنه الغاسق إذا وقب"[٤].

قال ابن قتيبة: "ويقال: الغاسق: القمر إذا كَسَفَ فاسودَّ، ومعنى ﴿وَقَبَ﴾: دخل في الكسوف"[٥]، وتقدم تضعيف شيخ الإسلام لقول ابن

---

(١) مجموع الفتاوى ٥٠٥/١٧ باختصار، وانظر نفس المرجع ٥٣٣.

(٢) مجموع الفتاوى ١١/١٥.

(٣) هذه الأقوال المشهورة، وهناك أقوال شاذة تأتي الإشارة إلى بعضها.

(٤) أخرجه الترمذي ٤٢٢/٥ ح٣٣٦٦، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة المعوّذتين وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، والحاكم ٥٤٠/٢، والنسائي في الكبرى ٨٣/٦، ح١٠٣٧، وأحمد ٦١/٦، وابن جرير ٧٤٩/١٢، وغيرهم.

(٥) غريب القرآن ص٥٤٣، وقال ابن جزي ٦٢٩/٢: "وقوبه هذا كسوفه؛ لأن وقبَ في كلام العرب يكون بمعنى الظُّلمة والسواد، وبمعنى الدخول، فالمعنى: إذا دخل في الكسوف أو إذا أظلم".

قتيبة هذا.

**القول الثاني**: أنه الليل إذا أقبل؛ وبه قال ابن عباس – رضي الله عنهما –، ومجاهد، والحسن، ومحمد بن كعب القرظي[١]، وقتادة[٢]، وهو قول جمهور المفسرين[٣].

واختاره الفراء، وقال: "والغاسق: الليل، ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾: إذا دخل في كل شيء وأظلم"[٤].

واختاره الزجاج، وقال: "﴿ غَاسِقٍ ﴾ يعني به الليل، ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ إذا دخل، وقيل: الليل غاسق – والله أعلم – لأنه أبردُ من النهار، والغاسق البارد"[٥].

واختاره أيضاً النحاس معللاً ذلك بأنه يدخل فيه جميع الأقوال؛ حيث قال: "وأكثر أهل التفسير أن الغاسق الليل، ومنهم من قال: الكوكب، فإذا رُجع إلى اللغة عُرف منها أنه يقال: غسق إذا أظلم، فاتفقت الأقوال؛ لأن الشمس إذا غربت دخل الليل، والقمر بالليل يكون، والكوكب لا يكاد يطلع إلا ليلاً، فصار المعنى: ومن شرِّ الليل إذا دخل بظلمته فغطَّى كل شيء"[٦].

---

(١) أخرجه عنهم ابن جرير ٧٤٨/١٢ – ٧٤٩، وانظر: الدر ٧١٨/٦ – ٧١٩.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٤٧٦/٣ [ ط محمود عبده ].

(٣) نسبه لأكثر المفسرين شيخ الإسلام كما تقدم، وابن القيم، والنحاس كما يأتي.

(٤) معاني القرآن ٣٠١/٣.

(٥) معاني القرآن ٣٧٩/٥، وقال الأخفش في معانيه ٥٨٩/٢: "الغسوق: الظلمة".

(٦) إعراب القرآن ٣١٣/٥.

واختاره الشوكاني وقال: "ووجه تخصيصه أن الشر فيه أكثر والتحرز من الشرور فيه أصعب، ومنه قولهم: الليل أخفى للويل"(١).

واختاره ابن عاشور(٢).

قال الرازي: "وإنما أُمر أن يتعوذ من شر الليل؛ لأن في الليل تخرج السباع من آجامها، والهوامُّ من مكانها، ويهجم السارق والمكابر، ويقع الحريق ويقلُّ فيه الغوث، وتنتشر الشياطين"(٣).

**القول الثالث**: أنه كوكب؛ وبه قال أبو هريرة(٤)، وعن ابن زيد أنه قال عند هذه الآية: "كانت العرب تقول: الغاسق: سقوط الثريا، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها"(٥).

**القول الرابع**: قال ابن شهاب: "الغاسق سقوط الثريا، والغاسق إذا وقب: الشمس إذا غربت"(٦).

قال ابن جزي: "والوقوب على هذا المعنى الظلمة أو الدخول"(٧).

وقال الشوكاني: "وكأنه لاحظ معنى الوقوب، ولم يلاحظ معنى

---

(١) تفسيره ٥/٧٥٩.

(٢) تفسيره ٣٠/٦٢٧.

(٣) تفسيره ٣٢/١٧٨ بتصرف يسير، وانظر: بدائع الفوائد ٢/٣٥٧، والسعدي ص٩٣٧.

(٤) أخرجه ابن جرير ١٢/٧٤٨، ورُوي مرفوعاً إلى النبي ﷺ أخرجه ابن جرير ١٢/٧٤٨، وعزاه في الدر ٦/٧١٨ أيضاً لأبي الشيخ وابن مردويه.

(٥) أخرجه ابن جرير ١٢/٧٤٩، وعزاه في الدر ٦/٧١٨ لأبي الشيخ.

(٦) الدر ٦/٧١٨.

(٧) تفسيره ٢/٦٢٩.

الغسوق"[١].

ويرى شيخ الإسلام كما تقدم أن هذه الأقوال متلازمة، وليست متعارضة؛ لأن القمر آية الليل، وكذلك الكواكب إنما ترى في الليل فهي آية الليل وعلامته، وقد وافق شيخَ الإسلام في هذا المذهب النحاسُ، فإنه يرى أن الأقوال متفقة، وتقدم ذكر كلامه.

واختار ابنُ جرير العموم، وأن الله أمر بالاستعاذة من كل غاسق إذا وقب، وإليك نص كلامه: "وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله أمر نبيه أن يستعيذ من شر غاسق وهو الذي يظلم، يقال: قد غسق الليل يغسق غسوقاً إذا أظلم، إذا وقب: يعني إذا دخل في ظلامه، والليل إذا دخل في ظلامه غاسق، والنجم إذا أفل غاسق، والقمر غاسق إذا وقب، ولم يخصص بعض ذلك بل عم الأمر بذلك، فكل غاسق فإنه كان يؤمر بالاستعاذة من شرِّه إذا وقب"[٢].

ولابن القيم كلام نحو كلام شيخ الإسلام[٣].

وما ذهب إليه شيخ الإسلام ومن وافقه هو الراجح، ويُستدل له بقاعدة: إذا احتمل اللفظ عدة معاني ولم يمتنع إرادةُ الجميع حُمل عليها[٤]، قال شيخ

---

(١) فتح القدير ٥/٧٥٨.

(٢) تفسيره ١٢/٧٥٠.

(٣) انظر: بدائع الفوائد ٢/٣٥٧ – ٣٥٩.

(٤) قواعد التفسير ٢/٨٠٧، ٨١٦.

الإسلام: "وأكثر آيات القرآن دالة على معنيين فصاعداً"[١].

وهناك أقوال شاذة في الآية، حيث ذكر النقاش[٢] بإسناده عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: "من شر الذَّكر إذا دخل"[٣].

وقال الزمخشري: "يجوز أن يراد بالغاسق الأسود من الحيَّات، ووقْبُه ضربه، ونَقْبُه، والوَقْب: النَّقْب"[٤].

وقيل: إنه إبليس[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى ١١/١٥.

(٢) هو أبو بكر، محمد بن الحسن بن محمد بن زياد المقرئ، المعروف بالنقاش، الموصلي البغدادي، كان عالماً بالقرآن والتفسير، من مؤلفاته: الإشارة في غريب في غريب القرآن، والموضح في القرآن ومعانيه، ولد سنة ٢٦٥هـ، وتوفي سنة ٣٥١هـ. انظر: تاريخ بغداد ٢٠١/٢ ترجمة رقم (٦٣٥).

(٣) تفسير السمعاني ٣٠٦/٦، وذكر إقرار محمد بن إسحاق بن خزيمة لهذا التفسير.

(٤) تفسيره ٢٤٣/٤، وانظر: القرطبي ١٧٥/١٧، وضعَّفه الرازي ١٧٨/٣٢، والألوسي ٢٨٢/٣٠.

(٥) ذكره ابن جزي في تفسيره ٦٢٩/٢.

# سورة الناس: الآيتان ٥ - ٦

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾[١].

اختار شيخ الإسلام أن معنى الآية: من شر الموسوس في صدور الناس من شياطين الجن والإنس.

قال – رحمه الله – عند هذه السورة: "وقد قيل: إن المعنى: من الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة ومن الناس، وأنه جعل الناس أولاً تتناول الجنة والناس، فسماهم ناساً كما سماهم رجالاً؛ قاله الفراء. وقيل المعنى: من شر الموسوس في صدور الناس من الجن، ومن شر الناس مطلقاً؛ قاله الزجاج. ومن المفسرين كأبي الفرج ابن الجوزى من لم يذكر غيرهما، وكلاهما ضعيف، والصحيح أن المراد القول الثالث، وهو أن الإستعاذة من شر الموسوس من الجنة ومن الناس في صدور الناس، فأمر بالإستعاذة من شر شياطين الإنس والجن؛ كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِى بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴾[٢].

وفي حديث أبي ذر الطويل الذي رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه بطوله قال: "يا أبا ذر ! تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن. فقال: يا رسول الله أو

---

(١) سورة الناس: الآيتان ٥ – ٦.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١١٢.

للإنس شياطين؟ قال: نعم شر من شياطين الجن.."[١] إلى أن قال: "فهو سبحانه أمر في سورة الناس بالإستعاذة من شر الوسواس من الجنة والناس الذي يوسوس في صدور الناس، ويدخل في ذلك وسوسة نفس الإنسان له ووسوسة غيره له"[٢].

وقال – رحمه الله – عند هذه السورة: "فيها أقوال، ولم يذكر ابن الجوزي إلا قولين، ولم يذكر الثالث وهو الصحيح، وهو أن قوله: ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ لبيان الوسواس، أي: الذي يوسوس من الجنة ومن الناس في صدور الناس، فإن الله تعالى قد أخبر أنه جعل لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، وإيحاؤهم هو وسوستهم، وليس من شرط الموسوس أن يكون مستتراً عن البصر؛ بل قد يشاهد قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[٣]، وهذا كلام من يعرف قائله ليس شيئاً يلقى في القلب لا يدري ممن هو، وإبليس قد أمر بالسجود لآدم فأبى واستكبر، فلم يكن ممن لا يعرفه آدم، وهو ونسله يرون بني آدم من حيث لا يرونهم، وأما آدم فقد

---

(١) أخرجه أحمد ١٧٨/٥، والنسائي ٢٧٥/٨ ح٥٥٠٧، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من شر شياطين الإنس،وضعفه الألباني في ضعيف سنن النسائي ص٢٤٢.

(٢) منهاج السنة ١٨٧/٥ – ١٩٣.

(٣) سورة الأعراف: الآيتان ٢٠ – ٢١.

رآه، وقد يرى الشياطين والجن كثير من الإنس؛ لكن لهم من الاجتنان والاستتار ما ليس للإنس... فالذي يوسوس في صدور الناس نفوسهم، وشياطين الجن وشياطين الإنس، والوسواس الخناس يتناول وسوسة الجنة ووسوسة الإنس، وإلا أي معنى للاستعاذة من وسوسة الجن فقط؛ مع أن وسوسة نفسه وشياطين الإنس هي مما تضره، وقد تكون أضر عليه من وسوسة الجن.

وأما قول الفراء: أن المراد من شر الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس: الطائفتين من الجن والإنس، وأنه سمى الجن ناساً كما سماهم رجالاً وسماهم نفراً. فهذا ضعيف؛ فإن لفظ الناس أشهر وأظهر وأعرف من أن يحتاج إلى تنويعه إلى الجن والإنس، وقد ذكر الله تعالى لفظ الناس في غير موضع.

وأيضاً فكونه يوسوس في صدور الطائفتين صفة توضيح وبيان، وليس وسوسة الجن معروفة عند الناس، وإنما يعرف هذا بخبر ولا خبر هنا، ثم قد قال: ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾، فكيف يكون لفظ الناس عاماً للجنة والناس، وكيف يكون قسيم الشيء قسماً منه، فهو يجعل الناس قسيم الجن، ويجعل الجن نوعاً من الناس، وهذا كما يقول: أكرم العرب من العجم والعرب، فهل يقول هذا أحد؟! وإذا سماهم الله تعالى رجالاً لم يكن في هذا دليل على أنهم يسمون ناساً؛ وإن قدر أنه يقال جاء ناس من الجن فذاك مع التقييد؛ كما يقال: إنسان من طين وماء دافق، ولا يلزم من هذا أن يدخلوا في لفظ الناس، وقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾[1]،

(١) سورة النساء: الآية ١.

فالناس كلهم مخلوقون من آدم وحواء؛ مع أنه سبحانه يخاطب الجن والإنس، والرسول ﷺ مبعوث إلى الجنسين؛ لكن لفظ الناس لم يتناول الجن، ولكن يقول: يا معشر الجن والإنس. وكذلك قول الزجاج: أن المعنى ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ الذي هو الجنة، ومن شر الناس فيه ضعف، وإن كان أرجح من الأول؛ لأن شر الجن أعظم من شر الإنس؛ فكيف يطلق الاستعاذة من جميع الناس ولا يستعيذ إلا من بعض الجن.

وأيضاً فالوسواس الخناس إن لم يكن إلا من الجنة فلا حاجة إلى قوله: من الجنة ومن الناس، فلماذا يخص الاستعاذة من وسواس الجنة دون وسواس الناس.

وأيضاً فإنه إذا تقدم المعطوف اسماً كان عطفه على القريب أولى؛ كما أن عود الضمير إلى الأقرب أولى، إلا إذا كان هناك دليل يقتضي العطف على البعيد، فعطف (الناس) هنا على (الجنة) المقرون به أولى من عطفه على (الوسواس)، ويكفي أن المسلمين كلهم يقرءون هذه السورة من زمن نبيهم، و لم ينقل هذان القولان إلا عن بعض النحاة، والأقوال المأثورة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان ليس فيها شيء من هذا؛ بل إنما فيها القول الذي نصرناه كما في تفسير معمر عن قتادة ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ قال: إن في الجن شياطين، وإن في الإنس شياطين، فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجن. فبين قتادة أن المعنى الاستعاذة من شياطين الإنس والجن. وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ قال: الخناس الذي يوسوس مرة ويخنس مرة من الجن والإنس. فبين ابن زيد أن ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ من الصنفين، وكان يقال: شياطين الإنس أشد على الناس من

شياطين الجن؛ شيطان الجن يوسوس ولا تراه وهذا يعاينك معاينة. وعن ابن جريج: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ قال: إنما وسواسان؛ فوسواس من الجنة فهو ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾، ووسواس من نفس الإنسان فهو قوله: ﴿وَٱلنَّاسِ﴾، وهذا القول الثالث وإن كان يشبه قول الزجاج فهذا أحسن منه؛ فإنه جعل من الناس الوسواس الذي من نفس الإنسان فمعناه أحسن، ذكر الثلاثة ابن أبي حاتم في تفسيره"[١].

وقال – رحمه الله –: "والقول الصحيح الذي عليه أكثر السلف أن المعنى: من شر الموسوس من الجنة ومن الناس من شياطين الإنس والجن"[٢].

## الدراسة:

اختلف المفسرون في المراد بهذه الآية على ثلاثة أقوال:

**القول الأول**: أن المعنى: من شر الموسوس من الجنة والناس، من شياطين الإنس والجن؛ وهذا قول قتادة، حيث قال عند هذه الآية: "إن من الناس شياطين، ومن الجن شياطين، فتعوَّذْ بالله من شياطين الإنس والجن"[٣]، و﴿مِنَ﴾ على هذا بيانية، بينت الذي يوسوس في صدور الناس، وأنه جنس يشمل صنفين[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى ٥٠٩/١٧ – ٥١٣.

(٢) الرد على المنطقيين ٥٠٦/١.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٤٧٨/٣ [ ط محمود عبده ]، وعزاه في الدر ٧٢٢/٦ لابن المنذر.

(٤) التحرير والتنوير ٦٣٥/٣٠.

واستُدل لهذا القول بحديث أبي ذر، وتقدم ذكره[١]، وعن ابن جريج أنه قال عند هذه الآية: "هما وسواسان، فوسواس من الجنة وهو الجن، ووسواس نفس الإنسان فهو قوله: ﴿وَٱلنَّاسِ﴾"[٢]، وهذا قول رابع في المسألة، وهو أن المراد بالناس: نفس الإنسان، وهذا القول يشبه قول الزجاج كما ذكر شيخ الإسلام.

واختار هذا القول شيخ الإسلام كما تقدم، ووافقه السمعاني، وقال: "وقوله: (من الناس) أي: ومن الناس، والمعنى: أنه أمره بالاستفادة من شياطين الجن والإنس، والشياطين كل متمرد سواء كان جنِّياً أو إنسياً"[٣]، وقال: "ثم إن الموسوس من الإنس يحتمل أن يريد من يوسوس بخدعه وأقواله الخبيثة، فإنه شيطان كما قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾، أو يريد به نفس الإنسان إذْ تأمره بالسوء؛ فإنها أمارة بالسوء والأول أظهر"[٤].

واختاره ابن القيم، وقال: "فالصواب القول الثاني، وهو أن قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان للذي يوسوس، وأنهم نوعان: إنس وجن، فالجني يوسوس في صدور الإنس، والإنسي أيضاً يوسوس إلى الإنسي، فالموسوس نوعان: إنس، وجن؛ فإن الوسوسة هي الإلقاء الخفي في القلب، وهذا مشترك

---

(١) استدل به شيخ الإسلام كما تقدم، والسَّمين ١١/١٦٣.

(٢) ذكره في الدر ٦/٧٢٢، وعزاه لابن المنذر.

(٣) تفسيره ٦/٣٠٨.

(٤) تفسيره ٢/٦٣٢، وانظر: الدر المصون ١١/١٦٣.

بين الجن والإنس، وإن كان إلقاء الإنسي ووسوسته إنما هي بواسطة الأذن، والجني لا يحتاج إلى تلك الواسطة لأنه يدخل في ابن آدم ويجري منه مجرى الدم، على أن الجني قد يتمثل له ويوسوس إليه في أذنه كالإنسي..."[١]، واختاره الشوكاني[٢]، والسعدي[٣]، وابن عاشور[٤].

**القول الثاني**: أن المعنى: الذي يوسوس[٥] في صدور الناس؛ جنِّهم وإنسهم، وهذا قول الفراء، حيث قال: "فالناس هاهنا وقعت على الجِنّة والناس، كقولك: يوسوس في صدور الناس: جنتِهم وناسهم، وقد قال بعض العرب وهو يحدِّث: جاء قوم من الجن فوقفوا فقيل: من أنتم؟ فقالوا: أُناس من الجن، وقد قال الله – جل وعزّ – ﴿ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾[٦]، فجعل النَّفر من الجن، كما جعلهم من الناس، فقال – جلّ وعز –: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾[٧]، فسمَّى الرجال من الجن والإنس، والله أعلم"[٨].

---

(١) بدائع الفوائد ٣٥٩/٢.

(٢) فتح القدير ٧٦٤/٥.

(٣) تفسيره ص٩٣٨.

(٤) تفسيره ٦٣٥/٣٠.

(٥) الوسْواس: اسم من أسماء الشيطان، أي: ذو الوسواس، والمراد بالوسوسة هنا تحسين الشر وتقبيح الخير. انظر: تفسير ابن عطية ٣٨٨/١٧، والسعدي ص٩٢٢.

(٦) سورة الجن: الآية ١.

(٧) سورة الجن: الآية ٦.

(٨) معاني القرآن ٣٠٢/٣، وانظر: الدر المصون ١٦٣/١١.

وعلى هذا القول يكون الوسواس موسوساً للجن، كما يوسوس للإن[١].

واختار هذا القول ابن جرير[٢].

وتقدم تضعيف شيخ الإسلام لهذا القول من جهة اللفظ والمعنى، كما ردَّه الزمخشري، وقال: "وما أحقَّه لأن الجن سمواً جناً لاجتنائهم، والناس ناساً لظهورهم من الإيناس، وهو الإبصار كما سمو بشراً، ولو كان يقع الناس على القَبيلين وصحَّ ذلك وثبت لم يكن مناسباً لفصاحة القرآن وبُعدِه من التَّصنُّع، وأجود منه أن يراد بالناس: الناسي، كقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾[٣]، وكما قرئ: (من حيث أفاض الناسي)[٤]، ثم يُبين بالجنة والناس؛ لأن الثقلين هما النوعان الموصوفان بنسيان حق الله عزّ وجل"[٥].

وتعقَّب قول الفراء، الرازي[٦]، والألوسي[٧]،كما تعقبه ابن القيم من وجوه أربعة، تقدم ذكرُ مضمونها في كلام شيخ الإسلام، والزمخشري، وإليك بيانها إجمالاً:

١ – أنه لم يقم دليل على أن الجني يوسوس في صدر الجني، ويدخل فيه،

---

(١) زاد المسير ٣٣٦/٨.

(٢) تفسيره ٧٥٣/١٢.

(٣) سورة القمر: الآية ٦.

(٤) وهي قراءة سعيد بن جبير، والمراد بالناسي: آدم عليه السلام، والقراءة شاذة. انظر: المحتسب ٢٠٧/١.

(٥) تفسيره ٢٤٥/٤، وانظر: البيضاوي ٦٣٤/٢، والدر المصون ٢٨٧/١١.

(٦) تفسيره ١٨٢/٣٢.

(٧) تفسيره ٢٨٧/٣٠.

كما يدخل في الإنسي، ويجري منه مجراه من الإنسي.

٢ – أنه فاسد من جهة اللفظ أيضاً، فإنه قال: ﴿ ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ فكيف يبيِّن الناس بالناس.

٣ – أن يكون قد قسَّم الناس إلى قسمين: جِنَّة وناس، وهذا غير صحيح.

٤ – أن الجنَّة لا يطلق عليهم اسم الناس بوجه، ثم قال: فإن قيل: لا محذور في ذلك فقد أطلق على الجن اسم الرجال كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلۡجِنِّ ﴾ فإذا أطلق عليهم اسم الرجال لم يمتنع أن يطلق عليهم اسم الناس.

قلت: هذا هو الذي غر من قال إن الناس اسم للجن والإنس في هذه الآية، وجواب ذلك: أن اسم الرجال إنما وقع عليهم وقوعاً مقيداً في مقابلة ذكر الرجال من الإنس، ولا يلزم من هذا أن يقع اسم الناس والرجال عليهم مطلقاً، وأنت إذا قلت: إنسان من حجارة أو رجل من خشب ونحو ذلك، لم يلزم من ذلك وقوع اسم الرجل والإنسان عند الإطلاق على الحجر والخشب.

وأيضاً فلا يلزم من إطلاق اسم الرجل على الجني أن يطلق عليه اسم الناس، وذلك لأن الناس والجنة متقابلان، وكذلك والإنس والجن، فالله تعالى يقابل بين اللفظين كقوله: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ﴾[1]، وهو كثير في القرآن، وكذلك قوله: ﴿ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ يقتضي أنهما متقابلان فلا يدخل أحدهما في الآخر خلاف الرجال والجن، فإنهما لم يستعملا متقابلين، فلا يقال:

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٣٠.

الجن والرجال، كما يقال: الجن والإنس، وحينئذ فالآية أبين حجة عليهم في أن الجن لا يدخلون في لفظ الناس؛ لأنه قابل بين الجنة والناس فعُلم أن أحدَهما لا يدخل في الآخر"[١].

**القول الثالث**: أن المعنى: من شر الوسواس الذي هو من الجنة، ومن شرِّ الناس، فقوله: ﴿وَٱلنَّاسِ﴾ معطوفة على ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾، وهذا قول الزجاج[٢]، واختاره أيضاً النحاس، وقال: "سألت عليَّ بن سليمان[٣] عن قوله عزّ وجل: ﴿وَٱلنَّاسِ﴾ فكيف يُعطفون على ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ وهم لا يوسوسون؟ فقال: هم معطوفون على الوسواس، والتقدير: قل أعوذ برب الناس من شر الوسواس والناس، والذي قال حسنٌ؛ لأن التقديم والتأخير في الواو حسن كثير، كما قال[٤]:

جَمَعتَ وفحشاً غيبةً ونميمةً ** ثلاثَ خصال لستَ عنها بِمُرعَوي

وقال حسان[٥]:

---

(١) بدائع الفوائد ٣٩٣/٢ – ٣٩٥.

(٢) نسبه إليه ابن الجوزي ٣٣٦/٨، وشيخ الإسلام تبعاً له، وقد قال محقق كتابه: "إنه لم يفسر هذه السورة"٣٨١/٥.

(٣) هو الأخفش الصغير، علي بن سليمان بن الفضل، أبو المحاسن، نحوي، توفي ببغداد سنة ٣١٥هـ، له شرح كتاب سيبويه، والمهذب. انظر: بغية الوعاة ١٦٧/٢ ترجمة رقم (١٧٠٩)، والأعلام ٢٩١/٤.

(٤) البيت ليزيد بن الحكم بن العاص الثقفي، انظر: أمالي القالي ٦٧/١، والخزانة ٤٥٩/١.

(٥) ديوانه ص١٨٠.

وما زال في الإسلام من آل هاشم ** دعائـــم غُرٍ مـــا تُرام ومَفْـــخرُ
وهم جبلُ الإسلام والناس حولهم ** رِضام[٢] إلى طود[٣] يروق ويقهر
بهاليل[١] منهم جعفر وابـــن أمِّـــه ** علي ومنهم أحـــمد المُتَخَيَّرُ"[٤]

وبه قال مكي، وقال: "ولا يجوز عطفه على الجنّة؛ لأن الناس لا يوسوسون في صدور الناس، إنمـــا يوسوس الجـــنُّ، فلما استحال المعنى حُمل على العطف على الوسواس"[٥]، واختاره الواحدي[٦].

قال السَّمين: "وفيه بُعد كبير للَّبس الحاصل، وقد تقدم أن الناس يوسوسون أيضاً بمعنى يليق بهم"[٧].

وتقدم تضعيف شيخ الإسلام لهذا القول من جهة اللفظ والمعنى.

والراجح – والله أعلم – القول الأول، وهو قول شيخ الإسلام ومن وافقه، لدلالة القرآن والسنة على أن من الإنس شياطين يوسوسون، ولـــوروده عـــن قتادة، وأما الأقوال الأخرى ففيها تكلُّف في المعنى، وعدم اتِّساق في اللفظ.

---

(١) البُهْلُول: السيد الجامع لصفات الخير. انظر المعجم الوسيط ٧٤/١
(٢) الرِّضام: الحجارة البيض. انظر: المعجم الوسيط ٣٥١/١، مادة (رضم).
(٣) الطّود: الجبل العظيم. انظر: مختار الصحاح ص١٧٩، مادة (طود).
(٤) إعراب القرآن ٣١٦/٥.
(٥) إعراب المشكل ٥٨٧/٢.
(٦) الوسيط ٥٧٥/٤.
(٧) الدر المصون ١٦٤/١١.

# الخاتمة

وبعد أن منَّ الله ﷻ علي بإتمام هذا البحث، أذكر هنا أهم النتائج التي ظهرت لي من خلال هذه الدراسة، وهي كما يلي:

١ – اهتمام شيخ الإسلام – رحمه الله – بالترجيح بين الأقوال في التفسير، وقدرته الفائقة في هذا الباب، حيث يستدل للقول المختار عنده بالأدلة القوية الواضحة، ويرد ما خالفه، من وجوه مختلفة.

٢ – اهتمام الشيخ بتفسير الآيات المشكلة، وحل موضع الإشكال فيها، وطول نفسه في ذلك.

٣ – لم يكتب الشيخ كتاباً مستقلاً في تفسير القرآن على ترتيب آياته وسوره، بل إنه يرى عدم الحاجة إلى ذلك.

٤ – مع جلالة قدر هذا الإمام، وعلو منزلته في العلم والدين، وإدراكه التام لعلوم الشريعة، وغيرها منقولها ومعقولها، إلا أنه بشر غير معصوم يخطئ ويصيب، قال ابن كثير: "كان – رحمه الله – من كبار العلماء، وممن يخطئ ويصيب، ولكن خطؤه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجي..."[1]، ولذلك لاينبغي تقليده تقليداً أعمى، ومتابعته في جميع اختياراته، دون نظر في الأدلة، ودراسة لأقوال غيره من العلماء.

٥ – تأثرَ بترجيحات الشيخ عدد من المفسرين، ولا سيما تلميذاه ابن القيم، وابن كثير، فإنهما في الغالب يتابعانه في ذلك، ويستدلان بأدلته، ولولا

---

(١) البداية والنهاية ١٤/١١٢.

تفرُّق كتبه، وافتراء أعدائه عليه، وصرفهم الناس عنه، لكان له أثر على كل من جاء بعده من المفسرين، ولعل هذه الدراسة وأخواتها تكون معينة على معرفته ترجيحاته، والإفادة منها.

٦ – تفاوت المفسرين في العناية بالترجيح بين الأقوال في التفسير، واختلاف طرائقهم في ذلك، فمنهم من يهتم بهذا الجانب، ويستدل ويناقش، ومنهم من يورد الأقوال دون نقد أو ترجيح، ومنهم من يرجح أحياناً، ويسكت أحياناً.

وهذه بعض التوصيات، التي أرى النظر فيها، والعمل بها:

١ – أوصي إخواني طلاب العلم بمواصلة دراسة تراث هذا الإمام الكبير أبي العباس ابن تيمية – رحمه الله –، فإنه رغم الكم الهائل من الدراسات والبحوث التي كتبت حوله، ما زالت هناك كنوز لم تكتشف في تركته.

٢ – أوصي بدراسة منهجه في التعارض والترجيح ولا سيما في التفسير، فإن دراسة ذلك من خلال تمهيد قصير لا تفي بالغرض.

٣ – أوصي بالعناية بكتب الشيخ وفتاويه ورسائله، وتحقيقها، وتصحيحها، ولا سيما المجاميع الكبار، حيث إن فيها سقطاً وتصحيفاً، وتكراراً، وتداخلاً، وقد سبقت الإشارة إلى أن هناك جهوداً متعددة بذلت في ذلك، وما زالت، ولكن المأمول أكبر.

٤ – أوصي بالعمل على إعداد موسوعة شاملة لأقوال السلف في التفسير، وتمييز الصحيح منها من السقيم، حيث إنها من أقوى المرجحات.

وفي الختام أسأل الله تعالى التوفيق والسداد، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.